الدَّولة الأمويَّة

أمجادُ العرب في ظلال الإسلام

«أن العالم يفسح الطريق للمرء الذي يعرف إلى أين هو ذاهب»

رالف وأمرسون

«إن الشخص الناجح هو
من اعتاد على القيام
بالأمور التي لا يحب
الفاشلون القيام بها»

د. ستيفن كوفي

(١) معاوية بن أبي سفيان
(٤٠-٦٠هـ)، (٦٦٠-٦٨٠م)

أولاً: أسرته، وشيء من صفاته ﷺ:

١- اسمه ونسبه:

هو معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيّ بن كلاب أمير المؤمنين، أبو عبد الرحمن، القرشي الأمويُ المكي[١].

ولد قبل البعثة بخمس سنين، وكان رجلاً طويلاً، أبيض، جميلاً، مهيباً، وقد تفرَّس فيه والده ووالدته منذ الطفولة بمستقبلٍ كبير.

> يروى عن أبان بن عثمان بن عفان أنه قال: كان معاوية يمشي مع أمه هند، فتعثر فقالت له أمه: قم لا رفعك الله، وأعرابي ينظر، فقال: لما تقولين له هذا ؟ فو الله إني لأظنه سيسود قومه، فقالت: لا رفعه الله إن لم يسد إلا قومه[*].

٢- إسلام أبي سفيان والد معاوية رضي الله عنهما:

كان أبو سفيان من رجال الجاهلية الذين حاربوا الإسلام... وكُتب السيرة النبويَّة وصفت أعماله ضدَّ الدعوة الإسلامية، إلا أنَّ الله تعالى أراد له الهداية، فأسلم قبل فتح مكة بقليل، وقد أكرمه رسول الله ﷺ في فتح مكة، وأعلن أن: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»[٢].

١- سير أعلام النبلاء (٣/١٢٠).

*- سير أعلام النبلاء (٣/١٢١).

٢- البخاري رقم (٤٢٨٠).

وقد حَسُنَ إسلام أبي سفيان ﷺ، وقدَّم خدمات جليلة للإسلام، فقد كان مع رسول الله ﷺ في حُنين، وشارك في حصار الطَّائف وفقد إحدى عينيه فيها، وفي اليرموك فقد الثانية[1] وكان قد أرسله رسول الله ﷺ مع المغيرة بن شعبة لهدم اللات[2] صنم ثقيف، وقد كانت اللَّات آلهة معظمة عند قريش أيضاً، وكانوا يحلفون بها، وهذا دليلٌ على تغلغل الإيمان في قلب أبي سفيان ﷺ.

٣- هند بنت عتبة بن ربيعة أم معاوية رضي الله عنها:

هي أمُّ معاوية، أسلمت يوم الفتح بعد إسلام زوجها أبي سفيان. ولما أتت نساء قريش ليبايعن كانت هند بينهم، فعرفها رسول الله ﷺ فقال لها: إنَّك لهندُ بنت عتبة ؟ قالت: نعم، فاعف عمَّ سلف عفا الله عنك[3].

هذا وقد توفيت في ولاية عمر بن الخطاب ﷺ[4].

٤- إسلام معاوية رضي الله عنه وشيءٌ من فضائله:

أسلم معاوية مع أبيه وأخيه يزيد ﷺ يوم الفتح[5].

وقد ذكر العلماء لمعاوية ﷺ فضائل كثيرة، من هذه الفضائل:

دعاءُ الرسول ﷺ لمعاوية ﷺ، ومن ذلك قوله ﷺ: «اللهم اجعله هادياً[6]،

١- التبيين في أنساب القرشيين ص (٢٠٣).

٣- السيرة النبوية لابن هشام (١٩٥/٤).

٤- الدولة الأموية، د. علي الصلابي، ص (٣٥).

٤- التبيين في أنساب القرشيين، ص (٢١٩).

٥- الإصابة (٤٣٣/٣)، التبيين في أنساب القرشيين ص (١٠٥).

٦- هادياً: أي للناس أو دالاً على الخير.

مهدياً[1]، واهدِ به[2]». وقوله ﷺ: «اللهم علِّم معاوية الكتاب والحساب وقه العذاب[3]». وكان معاوية رضي الله عنه يكتب الوحي للرسول ﷺ[4]، وكذلك رسائله إلى زعماء القبائل[5].

كتابةُ معاوية للوحي أتاحت له لوناً من القرب الطبيعي من رسول الله ﷺ في تلك الفترة التي أعقبت فتح مكة حتى وفاته ﷺ، مما يستتبع بالضرورة التأثر بشخصه ﷺ والأخذ المباشر منه[*].

ثانياً: أعماله قبل الخلافة:

١- في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

بدأ نجم معاوية رضي الله عنه في الظهور في ميدان العمل السياسي والإداري في عهد الخليفة عمر رضي الله عنه فقد ولاه فتح قيسارية[6] سنة خمس عشرة للهجرة[7]؛ حيث أثبت معاوية جدارته وحسنَ قيادته، فأكسبه ذلك ثقة الجميع، ثم كان أن أسند

١- مهدياً: مهتدياً في نفسه.

٢- الشريعة (٢٤٣٧/٥) إسناده صحيح.

٣- موارد الظمآن للهيثمي، تحقيق حسين الداراني (٢٤٩/٧) إسناده حسن.

٤- البداية والنهاية (٣٩٦/١١).

٥- الإصابة في تمييز الصحابة (٤٣٤/٣).

*- الدولة الأموية المفترى عليها ص (١٤٥).

٦- قيسارية: على ساحل الشام، تعد في أعمال فلسطين ياقوت (٤٢١/٤).

٧- أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية ص (٥٩).

له أخوه يزيد- أميرُ دمشق- مهمة فتح سواحل الشام، فأبلى في ذلك بلاءً حسناً[1]. وبعد فتح قيسارية ونجاح معاوية ﷺ في فتح سواحل دمشق ولاه عمر ابن الخطاب ﷺ ولاية الأردن وذلك عام سبع عشرة للهجرة[2].

وفي سنة ثماني عشرة للهجرة توفي يزيد بن أبي سفيان رضي الله عنهما بالطاعون، فولّى عمر معاوية عمل أخيه دمشق وبعلبك والبلقاء[3]، فكان لعمل عمر هذا أكبرُ الأثر على نفسيَّة والد معاوية ووالدته، فحين عزّى عمر أبا سفيان في وفاة ابنه يزيد سأله أبو سفيان: يا أمير المؤمنين من وليت مكانه ؟ قال: أخوه معاوية، فقال أبو سفيان: وصلت رحماً يا أمير المؤمنين.

كتب أبو سفيان لمعاوية ينصحه في بداية عمله هذا، ومما قال: يا بني إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا، فرفعهم سبقهم وقدمهم عند الله وعند رسوله ﷺ وقصر بنا تأخيرنا، فصاروا قادةً وسادة، وصرنا أتباعاً، وقد ولُوك جسيماً من أمورهم فلا تخالفهم، فإنك تجري إلى أمدٍ فنافس، فإن بلغتَه أورثته عقِبك[*].
وكذلك كتبت له والدته هند بنت عتبة تقول: والله يا بني إنه قل من تلد مثلك، وإن هذا الرجل قد استنهضك في هذا الأمر، فاعمل بطاعته فيما أحببت وكرهت[*].

١- المصدر السابق نفسه.

٢- تاريخ الطبري (٦٧/٤) خلافة معاوية للعقيلي ص (١٧، ١٨).

٣- الطبقات الكبرى (٤٠٦/٧) أثر العلماء في الحياة السياسية ص (٦١).

*- البداية والنهاية (٣٩٩/١١) المقصود أورثته عقبك أي: الحمد وحسن السيرة.

إلا أنَّ بعض الناس- لا سيَّما شيوخهم- قد استغربوا تولية عمر ﷺ لمعاوية ﷺ مع حدَاثةِ سنّه ووجود من هو أكبرُ منه وأفضل، لذا سوَّغ عمر ﷺ عمله هذا حيث قالوا: ولّى حدث السن بقوله: تلومونني في ولايته، وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم اجعله هادياً مهدياً واهدِ به[1]».

لقد كان عمر ﷺ- وهو الخبير بمعادن الرجال- يدرك أكثر من غيره ما يتمتعُ به معاوية ﷺ من صفاتٍ تؤهله للقيادة؛ فحين قدم عمر الشام وافاهُ معاوية بموكب عظيم، فأنكر عمر موكب معاوية هذا، وقال: أأنت صاحب الموكب العظيم ؟ قال: نعم. قال: و لم تفعل هذا؟ لقد هممت أن آمرك بالمشي حافياً إلى بلاد الحجاز. قال: يا أمير المؤمنين إني بأرضٍ جواسيسُ العدو فيها كثيرة، فيجب أن أُظهر من عز السلطان ما يكون فيه عزٌ للإسلام وأهله ويُرهبَهم، فإن أمرتني فعلت، وإن نهيتني انتهيت، فقال له عمر: ما سألتك عن شيءٍ إلا تركتني في مثل رواجب[2] الضرس، لئن كان ما قلتَ حقاً، فإنَّه لرأي أريب، ولئن كان باطلاً فإنَّها لخديعة أديب. قال: فمرني يا أمير المؤمنين قال: لا آمرك ولا أنهاك. فقال رجلٌ: يا أمير المؤمنين، ما أحسن ما صدر الفتى عمَّا أوردته فيه، فقال عمر: لحسن مصادره وموارده جَشَّمناه ما جَشَّمناه[3].

وهذا الجواب من معاوية ﷺ يدل على خبرةٍ سياسيةٍ عالية، ومعرفةٍ واعيةٍ بأحوال الأمم، ودرايةٍ كاملة بسياسة الرعية والمحافظة على الوضع الأمني للدولة التي يحكمها، ومن أجل هذا رضي عمر ﷺ سياسته على الرغم من أنَّها تخالف سياسته في التواضع والزهد، ولعلَّ كلمة عمر ﷺ «من أجل ذلك جشمناه ما

١- السلسلة الصحيحة (٦١٥/٤) رقم ١٩٦٩ وقال الألباني: حديث صحيح.

٢- الرواجب: جمع راجبة: وهي ما بين عقد الأصابع من داخل أي: أضيق ما يكون.

٣- البداية والنهاية (٤١٦/١١).

جشمناه» تدل على رضاه عن سياسة معاوية ﷺ[1].

ويمكن أن نلخص أهم إنجازاته العسكرية على جبهة الشام في عهد عمر ﷺ بأمرين هما:

أ – سنُّ نظام الصوائف والشواتي:

لقد كان هدف الروم من هجماتهم على المدن الإسلامية الحدودية منذ البداية هو اعتمادُ ذلك كتدبير وقائيّ لحماية بلاد الروم وردع المسلمين، لكن استجابة معاوية ﷺ كانت فوق التحدي؛ فقد نقل المعركة إلى بلاد العدو، وابتعد بالحرب عن بلاد المسلمين، وكان لا بد لمعاوية من أجل تحقيق ذلك الهدف من تطوير وسائل الدفاع، واعتبار العواصم والثغور مجردَ قواعد متقدمة واجبها تلقي الصدمة والإنذار، مع استخدامها كمركز انطلاق للهجمات المضادة، وقد قاد معاوية بنفسه بعض هذه الصوائف منها صائفة سنة ٢٢هـ، حيث دخل بها بلاد الروم في عشرة آلاف، وصائفة ٣٢هـ[2]، حيث أوغل حتى بلغ عمورية، ومعه من أصحاب رسول الله ﷺ، عبادة بن الصامت، وأبو أيوب الأنصاري، وأبو ذر الغفاري، وشداد بن أوس[3].

ب ـ تكوين أول أسطول إسلامي في البحر:

يعود الفضل إلى الله تعالى ثم إلى معاوية ﷺ في هذه المرحلة الباكرة إلى فتح باب الجهاد في البحر الذي أصبح ضرورياً لحماية الشام ومصر ومواجهة النشاط المتزايد للأسطول البيزنطي، وغاراته المتكررة على سواحل الإقليمين،

١- الأمويون بين المشرق والمغرب، لمحمد الوكيل (٣٠/١). يجسد رأي عمر في صنع معاوية هذا قول رالف وأمرسون، انظر: ص (٧٦).

٢- تاريخ الطبري (١٤٤/٤، ١٦٠).

٣- المصدر نفسه (٢٤١/٤) الدولة الأموية حمدي ص (١٥٥).

ولكن لم يبدأ معاوية ﷺ في غزو البحر فعليًّاً إلا في عهد عثمان ﷺ وسيأتي بيان ذلك بإذن الله تعالى.

٢- في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه:

حينما بويع عثمان بالخلافة كان معاوية ﷺ والياً على معظم الشَّام، فأقرَّه عثمان عليها[١] كما أقرَّ بعض الولاة الآخرين على ولاياتهم، كاليمن، والبحرين، ومصر وغيرها من الولايات، وقد تطورت الأحداث، وضُمَّت إلى معاوية بعض المناطق الأخرى حتى أصبح الوالي المطلق لبلاد الشام[٢].

وبقي معاوية ﷺ مصرًّاً على غزو البحر لِمَا في ذلك من فائدةٍ في حماية حدود الدولة الإسلاميَّة، فلمَّا تولَّى الخلافة عثمان عاود معاوية ﷺ الحديث، وألحَّ به على عثمان ﷺ، فردّ عليه قائلاً: «أن قد شهِدتُ ما ردَّ عليك عمر - رحمه الله- حين استأذنته في غزو البحر». ثم كتب إليه معاوية ﷺ مرَّة أخرى يهوِّن عليه ركوب البحر إلى قبرص، فكتب عثمان إليه: «فإن ركِبَت معك امرأتك فاركبه مأذوناً وإلا فلا»[٣].

كما اشترط عليه أيضاً حيث قال: «لا تنتخب الناس بل خيِّرهم، فمن اختار الغزو طائعاً، فاحمله وأعنه»[٤].

فلمَّا قرأ معاوية كتاب عثمان جهز لركوب البحر إلى قبرص، فكتب لأهل السواحل يأمرهم بإصلاح المراكب، وتقريبها إلى ساحل عكَّا لينطلق المسلمون منها إلى جزيرة قبرص[٥].

١- تاريخ خليفة بن خياط ص (١٥٥).
٢- تاريخ الطبري، (٤٤٢/٥).
٣- الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (٥٣٨/٢).
٤- تاريخ الطبري (٢٦٠/٥).
٥- الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (٥٣٨/٢).

وبالرغم من أنَّ معاوية ﷺ لم يجبر الناس على الخروج، إلا أنَّهم تدافعوا للاشتراك في هذه الحملة [١]، فكان انطلاقُ أول حملة بحرية للمسلمين بعد انتهاء فصل الشتاء في سنة ٢٨هـ/ ٦٤٩م [٢].

واجتمع معاوية ﷺ بأصحابه وتشاوروا فيما بينهم، ثم أرسلوا إلى أهل قبرص يخبرونهم: أنَّهم لم يغزوهم للاستيلاء على جزيرتهم [٣]، ولكن أرادوا دعوتهم لدين الله، ثمَّ تأمينَ حدود الدولة الإسلامية من جهة الشام؛ وذلك لأنَّ الروم كانوا يتخذون من قبرص محطَّةً يستريحون فيها إذا غزوا، ويتموَّنون منها إذا قلَّ زادهم.

ولكنّ سكّان الجزيرة لم يستسلموا للمسلمين، ولم يفتحوا لهم بلادهم، بل تحصّنوا في العاصمة، ولم يخرجوا لمواجهة المسلمين، فقد كان أهل الجزيرة ينتظرون تقدّم الروم للدّفاع عنهم، وصدِّ هجوم المسلمين عليها[٤].

فتقدّم المسلمون إلى عاصمة قبرص ((قسطنطينا)) وحاصروها وما هي إلا ساعاتٌ حتى طلب الناس الصُلحَ، فعاد المسلمون إلى بلاد الشام منتصرين، وأثبتت هذه الحملة قُدرةَ المسلمين على خوض غمار المعارك البحرية بجدارة[٥].

وفي ذلك يقول النبي ﷺ: ((أول جيش من أمتي يغزون البحر فقد أجيبوا))[٦].

١- جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين ص (٣٥٦).

٢- المصدر السابق نفسه ص (٣٥٦).

٣- المصدر السابق نفسه ص (٣٥٧).

٤- المصدر السابق نفسه ص (٣٥٧).

٥- تاريخ الطبري (٢٦١/٥).

٦- فتح الباري على صحيح البخاري (٢٢/٦). أوجبوا: أي فعلوا فعلاً وجبت لهم به الجنة.

٣- في عهد عليٍ رضي الله عنه:

بويع لعلي ﷺ بالخلافة، والأمة في أشد حالات اضطرابها، فتسارعت الأحداث، وتوالت الأيام مسرعةً، فمن الجمل إلى صفين إلى وقعة التحكيم التي انتهت: بأن كان علي ﷺ بالعراق يدعى أمير المؤمنين، وكان معاوية ﷺ بالشام يدعى الأمير فلمَّا مات علي ﷺ دعي معاوية ﷺ بالشام أمير المؤمنين[١]. وليس بصحيح تلك الرواياتُ التي تطعن في شخص الصحابي الجليل عمرو بن العاص ﷺ وبأنَّه قام بخداع أبي موسى الأشعري ﷺ يوم التحكيم.

وعلَّق على هذا ابن كثير بقوله: لما مات عليٌّ ﷺ قام أهل الشام فبايعوا معاوية على إمرةِ المؤمنين لأنَّه لم يبق له عندهم منازع[٢]، وكان أهل الشام يعلمون بأنَّ معاوية ﷺ ليس كُفئاً لعليٍّ بالخلافة ولا يجوز أن يكون معاوية ﷺ خليفةً مع إمكان استخلاف علي ﷺ، فإنِّ فضل علي وسابقته وعلمه، ودينه، وشجاعته، وسائر فضائله كانت عندهم ظاهرة معروفة، كفضل إخوانه، أبي بكر، وعمر، وعثمان وغيرهم ﷺ[٣].

وكان من أمر عليٍّ رضي الله عنه ما قد ذكرنا[٤].

١- تاريخ الطبري (٦/٧٦).

٢- البداية والنهاية (٨/١٦).

٣- الفتاوى (٣٥/٧٣).

٤- انظر ص (٧٤).

يذكر أنه عندما جاء خبر قتل علي إلى معاوية رضي الله عنهما جعل يبكي، فقالت له امرأته: أتبكيه وقد قاتلته؟ فقال: ويحك إنك لا تدرين ما فقد الناس من الفضل والفقه والعلم (*).

وعن عمر بن عبد العزيز- رحمه الله-: قال: رأيت رسول الله ﷺ في المنام وأبو بكر وعمر جالسين عنده، فسلمت عليه وجلست؛ فبينما أنا جالس إذ أتي بعلي ومعاوية فأدخلا بيتاً وأجيف[1] الباب وأنا أنظر، فما كان بأسرع من أن خرج عليٌ وهو يقول: قُضي لي ورب الكعبة، ثم ما كان بأسرع من أن خرج معاوية وهو يقول: غفر لي ورب الكعبة[2].

٤- الحسن بن علي رضي الله عنهما، وعام الجماعة ؟!:

كانت بيعة الحسن بن علي رضي الله عنهما في شهر رمضان من سنة ٤٠هـ، وذلك بعد استشهاد أمير المؤمنين علي ﷺ على يد الخارجي عبد الرحمن بن ملجم المرادي[3]، حيث اختار الناس في العراق الحسن بعد والده الذي لم يعين أميراً للمؤمنين من بعده.

فكان أول من بايع الحسن قيس بن سعد، حيث قال له: ابسط يدك أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه وقتال المُحلِّين، فقال له الحسن ﷺ: على كتاب الله

١- أجيف الباب: رُدَّ وأغلق

٢- البداية والنهاية (١٣٣/٨).

٣- الطبقات (٣٥/٣- ٣٨) تحقيق د. إحسان عباس.

*- البداية والنهاية (١٣٣/٨).

وسنة نبيه فإن ذلك يأتي من وراء كل شرط: فبايعه وسكت، وبايعه الناس[1]، وقد اشترط الحسن بن علي على أهل العراق عندما أرادوا بيعته فقال لهم: إنَّكم سامعون مطيعون، تسالمون من سالمت، وتحاربون من حاربت[2]، وفي رواية قال لهم: والله لا أبايعكم إلا على ما أقول لكم، قالوا: ما هو؟ قال: تسالمون من سالمت وتحاربون من حاربت[3].

ويستفاد من الروايات السابقة ابتداءُ الحسن ﷺ في التمهيد للصلح مع معاوية فور استخلافه، فقد باشر الحسن بن علي سلطته كخليفةٍ، فرتَّب العمال وأمّر الأمراء وجنّد الجنود وفرّق العطايا، وزاد المقاتلة في العطاء مئة مئة فاكتسب بذلك رضاهم[4].

كان الحسن ﷺ قادراً على أن يخوض حرباً لا هوادة فيها ضد معاوية، فشخصيته الفذة من الناحية العسكرية والأخلاقية، والسياسية، والدينية تساعده على ذلك مع وجود عوامل أخرى، إلا أن الحسن بن علي، مال إلى السلم والصلح لحقن الدماء، وتوحيد الأمة، والرغبة فيما عند الله، وزهده في الملك... وغير ذلك من الأسباب، فقاد الحسن ﷺ بذلك مشروع الإصلاح الذي توج بوحدة الأمة[*].

١- تاريخ الطبري (٦/٧٧)

٢- المصدر نفسه (٦/٧٧).

٣- الطبقات تحقيق د. محمد السلمي (١/٢٨٧,٢٨٦)

٤- تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي ص (٦٧).

*- الدولة الأموية، د. الصلابي، ص (١٨٢).

لقد كان الحسن ﷺ في صلحه مع معاوية ﷺ وحقنه لدماء المسلمين، كعثمان في جمعه للقرآن، وكأبي بكرٍ في حربه للمرتدين[1]، ولا أدَلَّ على ذلك في كون هذا الفعل من الحسن يعد علماً من أعلام النبوة، والحُجَةُ في ذلك ما أخرجه البخاري من طريق أبي بكر ﷺ حيث قال: رأيت النبي ﷺ على المنبر - والحسن بن علي على جنبه وهو يقبل على الناس مرة، وعليه أخرى، ويقول: ((إنَّ ابني هذا سيدٌ، ولعلَّ الله أن يُصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين))[2].

أهم مراحل الصلح: مر الصلح بمراحل من أهمها:

المرحلة الأولى:

دعوة رسول الله ﷺ للحسن بأن يصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين، فتلك الدعوة المباركة دفعت الحسن ﷺ إلى الإقدام على الصلح بكل ثقة وتصميم[3].

المرحلة الثانية:

شرط البيعة الذي وضعه الحسن ﷺ أساساً لقبول مبايعة أهل العراق له، ذلك الشرط الذي نص على أنهم يسالمون من يسالم ويحاربون من يحارب[4].

المرحلة الثالثة:

وقوع المحاولة الأولى لاغتياله ﷺ بعد أن كشف عن نيته في الصلح مع معاوية ﷺ وهذه المحاولة يبدو أنها قد جرت بعد استخلافه بقليل[5].

---

١ - مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري ص (١٣٤).

٢ - البخاري رقم (٧١٠٩).

٣- مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري ص ٣١٧.

٤- مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري ص ١٥٦.

٥- المصدر نفسه ص (١٢٦).

المرحلة الرابعة:

تبادل الرسل بين الحسن ومعاوية، ووقوع الصلح بينهما رضوان الله عليهما.

المرحلة الخامسة:

محاولة اغتيال الحسن ﷺ، فبعد نجاح مفاوضات الصلح بين الحسن ومعاوية رضي الله عنهما، شرع الحسن ﷺ في تهيئة نفوس أتباعه على تقبل الصلح الذي تم، فقام فيهم خطيباً ليبين لهم ما تم بينه وبين معاوية، وفيما هو يخطب هجم عليه بعض معسكره محاولين قتله، لكن الله سبحانه وتعالى أنجاه من ذلك[1].

المرحلة السادسة:

تنازل الحسن بن علي عن الخلافة وتسليمه الأمر إلى معاوية رضوان الله عليهم أجمعين؛ فبعد أن أنجى الله سبحانه وتعالى الحسن ﷺ من الفتنة التي وقعت في معسكره، خطب في قومه فقال: «أما بعد فإن أكيس الكيس[2] التُّقى، وإن أحمق الحمق الفجور، وإن هذا الأمر الذي اختلفت فيه أنا ومعاوية إما كان حقاً لي تركته لمعاوية إرادة إصلاح هذه الأمة وحقن دمائهم، أو يكون حقاً كان لامرئ كان أحق به مني ففعلت ذلك مرضاة قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[3] [الأنبياء، آية: ١١١].

أهم أسباب ودوافع الصلح:

أما أهم الأسباب والدوافع للصلح الذي تمَّ بين الحسن ومعاوية فهي:

١- المصدر نفسه ص (١٣٩).

٢- أكيس: أعقل، والكيس العقل: لسان العرب (٢٠١/١٦).

٣- المعجم الكبير (٢٦/٣) إسناده حسن.

١- الرغبة فيما عند الله وإرادة صلاح هذه الأمة:

قال الحسن بن علي رضي الله عنهما رداً على نفير الحضرمي عندما قال له: إن الناس يزعمون أنك تريد الخلافة. فقال: كانت جماجم العرب بيدي، يسالمون من سالمت ويحاربون من حاربت فتركتها ابتغاء وجه الله[١].

٢- حقن دماء المسلمين:

قال الحسن ﷺ: خشيت أن يجيء يوم القيامة سبعون ألفاً، أو أكثر أو أقلُّ كلهم تنضج أوداجهم دماً، كلهم يسأل الله فيما هُرِيقَ دمه؟[٢].

٣- مقتل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه:

ومن الأسباب التي دعت أمير المؤمنين الحسن ﷺ إلى الصلح ما روّع به من مقتل أبيه، فقد ترك ذلك فراغاً كبيراً في جبهة العراق وأثر اغتياله على نفسية الحسن رضي الله عنه، فترك فيها حزناً وأسى شديداً، فقد قتل هذا الإمام العظيم بدون وجه حق ولم يراعِ الخوارج سابقته في الإسلام ولا أفضاله العظيمة، ولا خدماته الجليلة التي قدمها للإسلام فقد كانت حياته حافلة بالقيم والمثل والعمل على تكريس أحكام الشريعة على مستوى الدولة والشعب[٣].

٤- قوة جيش معاوية:

اجتمع لمعاوية رضي الله عنه عوامل ساعدت على قوة جبهته منها؛ طاعة الجيش له، اتفاق الكلمة عليه من أهل الشام، خبرته الإدارية في ولاية الشام، وثبات مصادره المالية، وعدم تحرّجه من دفع الأموال من أجل تحقيق أهدافه التي يراها مصلحة للأمة[٤].

١- البداية والنهاية (٢٠٦/١١).
٢- المصدر السابق نفسه.
٣- الدولة الأموية، د. الصلابي، ص (١٨٩).
٤- المصدر السابق، ص (١٩٠).

٥- شخصية معاوية:

إن تسليم الحسن ﷺ الخلافة إلى معاوية ﷺ مع أنه كان معه أكثر من أربعين ألفاً بايعوه على الموت دليل على ثقته بمعاوية ﷺ، فهو لو لم يكن أهلاً لها لما سلمها السبط الطيب إليه ولحاربه[1]، فقد ذكر المترجمون والمؤرخون لسيرته فضائلَ كثيرة وأعمالاً جليلة سنأتي على ذكرها لاحقاً.

حوادث التاريخ قيم المستقبل:

ما أشبه قصة الحسن ومعاوية رضي الله عنهما، بما يجري اليوم بين شعوب هذه الأمة، فالحسن ﷺ رسم لنا بفعلته هذه أرقى أشكال التسامح والتقارب بين أبناء الدين الواحد، فقد قام بتسليم الخلافة لأخيه معاوية ﷺ حرصاً منه على وحدة الأمر واجتماع الشمل، وتقديراً منه لمكانة وحكمة معاوية. فكم من قاطع رحمٍ، ومشاحنٍ لصديق يغفل عن فوائد قصة الحسن ﷺ، لا بل يغفل عن قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام، ١٥٣]، فالصراط المستقيم هو: القرآن، والإسلام، والفطرة التي فطر الله الناس عليها، والسبل هي: الأهواء، والبدع، والشبهات.

فما أجمل أن ترى أخوين يُغضبُ أحدهمَا الآخر، فيبتسم المظلوم منهما في وجه الظالم لكي لا يخسر صداقة أخيه في ساعة غضب، فينتبه الظالم منهما لذلك فيسرع في الاعتذار من أخيه، فيكونان قد امتثلا لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ

١- الناهية عن طعن أمير المؤمنين معاوية ص (٥٧).

حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٣-٣٥]. رحم الله الحسن بن علي حيث علمنا كيف نتسامح مع الناس، ونسعى للخير كيفما كان.

ثالثاً: خلافة معاوية:

بتنازل الحسن ﷺ اكتملت لمعاوية عوامل تولي الخلافة، وتهيَّأت له جميع أسبابها، فبويع أميراً للمؤمنين عام أربعين للهجرة وسمي هذا العام بعام الجماعة[1].

رابعاً: صفات معاوية:

اشتهر أمير المؤمنين معاوية ﷺ بصفة الحلم وكان يُضرب به المثل في حلمه، وكظم غيظه وعفوه عن الناس.

قال معاوية ﷺ مرةً: يا بني أمية فارقوا قريشاً بالحلم، فو الله لقد كنت ألقى الرجل في الجاهلية فيوسعني شتماً وأوسعه حلماً، وأرجع وهو لي صديق، إن استنجدته أنجدني وأثور به فيثور معي، وما وضع الحلم عن شريف إلا شرفه، ولا زاده إلا كرماً[*].

وكان لتخلقه بخُلقِ الحلم الذي لم يخالطه ضعفٌ أثرٌ في نجاحه في تثبيت أركان دولته وذلك بمقدرته الفائقة على امتصاص غضب المخالفين، وتحويلهم إلى الرضى والقناعة بسياسته، وهكذا تأتي مكارم الأخلاق التي من أهمها الحلم والعفو والصبر والكرم لتكون من أهم عناصر السيادة، وقد بيَّن في هذه الأقوال بأنَّ الحلم يخالطه شيء من الذل كما أنَّ النصر يخالطه شيء من العز، ولكنه

١- سير أعلام النبلاء (١٣٧/٣)، تاريخ خليفة ص (٢٠٣).

*- البداية والنهاية (٤٤١/١١).

أبدى سروره بذلك الذل لما يترتب عليه من النتائج الحميدة التي منها اكتساب الأصدقاء والأنصار[1].

وقد وصف معاوية ﷺ نفسه مشيراً إلى هذه السياسة بقوله: إني لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولو أنَّ بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت أبداً. فقيل له وكيف ذلك ؟ قال: كنت إذا مدوها أرخيتها وإذا أرخوها مددتها[2].

كان معاوية ﷺ يوصي يزيد بهذه السياسة دائماً فيقول له: عليك بالحلم، والاحتمال حتى تمكنك الفرصة، فإن أمكنتك فعليك بالصفح؛ فإنه يدفع عنك معضلات الأمور، ويقيك مصارع المحذور[3].

وفي هذه الوصية يلخص معاوية ﷺ منهجه وخبرته في السياسة والإدارة لابنه يزيد في كلمات قليلة جامعة تنم على ما يتمتع به هذا الصحابي الكريم من حنكة سياسية وبراعة إدارية[4].

خامساً: ثناء الصحابة والعلماء عليه:

عمر بن الخطاب ﷺ:

قال عمر بن الخطاب مرَّةً لبعض الصحابة:

تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية[5].

١- التاريخ الإسلامي (٢٦/١٧).

٢- نهاية الإرب (٤٤/٦) العقد الفريد (٢٥/١).

٣- نهاية الإرب (٢٥٦/١).

٤- مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري صـ٩٥.

٥- المعجم الكبير (٣٣٠/٥) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري ص (٨٣).

عبد الله بن عباس رضي الله عنهما:

ما رأيت رجلاً كان أخلق بالملك من معاوية[1].

سعيد بن المسيِّب رحمه الله:

قال ابن وهب عن مالك عن الزهري قال: سألت سعيدَ بن المسيِّب عن أصحاب رسول الله ﷺ فقال لي: اسمع يا زهري، من مات محباً لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وشهد للعشرة بالجنة، وترحم على معاوية كان حقيقاً على الله أن لا يناقشه الحساب[2].

ابن تيمية رحمه الله:

اتفق العلماء على أن معاوية أفضل ملوك هذه الأمة، فإن الأربعة قبله كانوا خلفاء نبوة وهو أول الملوك، كان ملكه ملكاً ورحمةً [3].

الذهبي رحمه الله:

إن معاوية من خيار الملوك الذين غلب عدلهم على ظلهم، وما هو بريء من الهنات، والله يعفو عنه، وحسبك بمن يؤمرِّه عمر ثم عثمان على إقليم هو ثغر، فيضبطه ويقوم به أتمَّ قيام، ويرضى الناس بسخائه وحلمه... فهذا الرجل ساد وساس العالم بكمال عقله وفرط حلمه وسعة نفسه، وقوة دهائه ورأيه [4].

١- المصدر السابق (٤٣٩/١١).

٢- البداية والنهاية (٤٤٩/١١).

٣- الفتاوى (٤٧٨/٤).

٤- سير أعلام النبلاء (١٣٣،١٣٢/٣).

سادساً: عاصمة الدولة الأموية:

كانت الشام إحدى الولايات المهمة في الإمبراطورية الرومانية الشرقية «البيزنطية»، بل كانت لقربها من بيت المقدس، وتاريخها القديم إحدى المراكز الحضارية في هذه الإمبراطورية، وكان العرب قبل الإسلام ينظرون إليها نظرة كبيرة لما تحتويه من حضارة، فضلاً عمَّا بها من خيرات وخضرة وأسواق، وتعد مدينة دمشق المدينة الأولى في بلاد الشام، فهي قاعدتها ومدينتها العظمى، وأَدت دوراً كبيراً في تاريخ المنطقة، لذلك اتخذها الحاكم الروماني قاعدة لحكمه.

ولما قامت الدولة الأموية، رأى معاوية ﷺ أنَّ الدولة الإسلامية توسعت وامتدت شرقاً وغرباً؛ فلم يجد أفضل من دمشق عاصمة للخلافة الأموية، وذلك لأنها تقع بين جزأي العالم الإسلامي؛ الجزء الشرقي الذي يشمل العراق وفارس، والجزء الغربي الذي يشمل مصر والمغرب.

كما كان لأحاديث رسول الله ﷺ أثرها في هجرة الناس للشام، واعتزاز أهلها بالإسلام وحرصهم على زعامة العالم الإسلامي، فالنبي ﷺ ميَّز أهل الشام بالقيام بأمر الله دائماً إلى آخر الدهر، وبأنَّ الطائفة المنصورة فيهم إلى آخر الدهر، فهو إخبارٌ عن أمرٍ دائمٍ مستمرٍ فيهم مع الكثرة والقوة[1].

سابعاً: موقف معاوية من قتلة عثمان رضي الله عنهما:

كان من ضمن شروط الحسن في صُلحه مع معاوية ألا يطلبَ أحداً من أهل المدينة والحجاز والعراق بشيء[2]، والملاحظ هنا أنَّ معاوية من ذلك الوقت

١- رجال الإدارة في الدولة الإسلامية العربية، ص (١٣٦).

٢- التبيين في أنساب القرشيين ص (١٢٧).

ترك الطلب بدم عثمان[1]، فشرط الحسين بالغ الأهمية يحول دون الالتفات إلى الماضي، ويركز على فتح صفحةٍ جديدةٍ تركز على الحاضر والمستقبل[2].

وإضافة إلى ذلك فإنَّ السنوات الخمس التي احتضنت المعارك في الجمل وصفين ومصر وغيرها ذهبت بأولئك الذين ترددت أسماؤهم بتهمة قتل عثمان، ومع ذلك فإنَّ مسألة قتل عثمان ظلَّت حاضرةً في ذهن الخلفاء من بني أمية ونوابهم في الأغلب، فانتصارهم لعثمان كان حقيقة لا شبهة فيها[3].

جاء في عيون الأخبار لابن قتيبة: إن معاوية ﷺ لما قدم المدينة بعد عام الجماعة دخل دار عثمان بن عفان، فصاحت عائشة بنت عثمان بن عفان وبكت ونادت أباها، فقال معاوية ﷺ: يا ابنة أخي، إن الناس أعطونا طاعةً، وأعطيناهم أماناً، وأظهرنا لهم حلماً تحته غضب، وأظهروا لنا ذلاً تحته حقد، ومع كل إنسان سيفه ويرى موضع أصحابه، فإن نكثناهم نكثوا بنا، ولا ندري أعلينا تكون أم لنا، لأن تكوني ابنة عم أمير المؤمنين خير من أن تكوني امرأة من عرض الناس[*].

ثامناً: التنظيم الإداري والاجتماعي وأخبار الفتوحات:

١- مباشرة معاوية للأمور بنفسه:

من القواعد التي قامت عليها سياسة معاوية ﷺ الداخلية مباشرة الأمور بنفسه، فكان يحرص على معرفة كل صغيرةٍ وكبيرةٍ في دولته، فبالرغم من أنَّه

١- الخلفاء الراشدون للنجار ص (٤٨٢).

٢- الدور السياسي للصفوة في صدر الإسلام ص (٣٤١).

٣- دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين ص (٧٠).

*- دراسة قي تاريخ الخلفاء الأمويين ص (٦٩)، السلطان لابن قتيبة ص (٥٨).

استعان بأمهر رجال عصره، إلا أنَّه لم يكن يكتفي بذلك، فسخَّر كل وقته وجهده للدولة ورعاية مصالح المسلمين[1].

٢ ـ الدواوين المركزية التابعة لمعاوية:

أ – ديوان الرسائل:

هو الهيئة المشرفة على تحرير رسائل الخليفة وأوامره وعهوده، ووصاياه إلى موظفيه في الأقاليم الإسلامية، وإلى البلدان الخارجية التي لها علاقة بالدولة الإسلامية[2].

ب– ديوان الخاتم:

أنشأ معاوية ﷺ ديوان الخاتم لتحقيق السرية والأمان لمراسلات الدولة فلا تطلع عليها عين جاسوسٍ ولا تصل إليها يد خائن[3].

جـ– ديوان البريد:

يذكر المؤرخون: أن معاوية ﷺ أول من أَدخل نظام البريد في الدولة الإسلامية وأصدر أوامره بوضع الخيول في عدَّة أماكن، وقام بتنظيمه[4]، وتُشير بعض المصادر إلى أنَّه اقتبسه من الروم[5]، وكانت أعماله في العصر الأموي، واسعة ومتشعبة، نظراً لسعة رقعة الدولة الإسلامية.

يقول أبو هلال العسكري: أول من وضع نظام البريد الذي يوفر الوقت على صاحب البريد في الإسلام هو معاوية بن أبي سفيان، وأحكم أمره عبد الملك[*].

١– العالم الإسلامي في العصر الأموي ص (١١٧).

٢– إدارة بلاد الشام في العهدين الراشدي والأموي ص (١٢٤).

٣– الدولة الأموية المفترى عليها ص (٤٣٣).

٤– إدارة بلاد الشام في العهدين الراشدي والأموي ص (١٧٤).

٥– المصدر نفسه ص (١٧٤). *– الأوائل ص (٢٣٧).

وهكذا فقد كانت هذه الدواوين تقوم بأعمالِ وزارة المالية (ديوان الخراج)، ووزارة الدفاع (ديوان الجند)، ووزارة الداخلية (ديوان الشرطة)، ووزارة العدل (ديوان القضاء) كما كان ديوان الرسائل يقوم بأعمال السكرتيرية، وديوان الخاتم يقوم بأعمال السجلات والأرشيف، وكان لكلٍّ ديوان موظفوه من الكتبة المتخصصين، وكان ديوان الخراج يُكتب في العراق باللغة الفارسية، وفي الشام ومصر باللغة الرومية، وظل كذلك حتى عرَّبه عبد الملك بن مروان[1].

٣- حرصه على توطيد الأمن في خلافته:

أ- الحاجب: كان معاوية بن أبي سفيان أول من اتخذ الحاجب في الإسلام، لكي يتجنب محاولات الاعتداء عليه[2].

وكان يُشترط في الحاجب أن يعرف منازل الناس وأنسابهم وطبقاتهم، لكي يتمكن من معرفةِ من يأذن لهم، ومن لا يأذن لهم.

ب- الحرس: كان معاوية بن أبي سفيان أول من اتخذ الحرس في الدولة الإسلامية، خوفاً من الخوارج الذين كانوا يريدون قتله، فقد أمر بالمقصورات في الجوامع وكان لا يدخلها إلا الثقاة وحراسه[3].

جـ- الشرطة: وظيفتها المحافظة على الأمن والنظام، والقبض على اللصوص والجناة والمفسدين، والدفاع عن الخليفة، وهي غير مسؤولة عن صدِّ أي هجوم خارجي عن الدولة[4].

١- الأمويون بين المشرق والمغرب (١٠٢/١).

٢- إدارة بلاد الشام في العهدين الراشدي والأموي ص١٠٢.

٣- إدارة بلاد الشام في العهدين ص١١١.

٤- المصدر السابق نفسه، ص (١١٥).

ولا يقتصر وجود الشرطة على عاصمة الخلافة فقط بل في الولايات الإسلامية الأخرى، وهم يتبعون ولاة الأقاليم؛ فهم الذين يختارونهم ويعينونهم وكان وجودها مهماً للدولة والمجتمع؛ لأنها تعمل على تحقيق الأمن والاستقرار، فهي الجهة الوحيدة المسؤولة عن حماية أرواح الناس، وحفظ حقوقهم وأموالهم من اعتداء بعضهم على بعض[1].

٤- المرافق العامة، والعلوم:

اهتم معاوية بن أبي سفيان بالمسجد الحرام، وأمر بتوسعته وأجرى له القناديل والزيت من بيت المال، وأضاء المصابيح فيه لأهل الطواف، واهتمَّ بالمسجد الأقصى، وقام مسلمة بن مخلد أمير مصر من قبل معاوية بالزيادة في المسجد الجامع بالفُسطاط عام ٥٣هـ، وطلا جُدُره بالجص، وزخرف بنيانه، وبنى له أربع منارات شامخة وفرشه بالحصير. وأخذ أهل مصر ببناء المنارات للمساجد، وأمر المؤذنين أن يكون أذانهم في الليل في وقت واحد[2].

واهتم معاوية بالمرافق العامة في الدولة الإسلامية، وحرص على توفير مياه الشرب في المدينة، وأجرى في الحرم المكي عيوناً [3].

وكان قد جعل أمير المؤمنين معاوية ﷺ دار المراجل بمكة، والتي كان يُطبخ فيها طعام الحجاج، وطعام الصائمين من الفقراء في شهر رمضان المبارك[4] وقفاً في سبيل الله.

١- المصدر السابق، ص (١٢٣).

٢- دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين ص (٣٤٧).

٣- دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين ص (٣٤١).

٤ - التطور الاقتصادي في العصر الأموي ص٢٦.

أمَّا في مجال العلوم؛ فقد كان سبّاقاً إلى رعاية العلوم وأهلها فأنشأ بيتاً للحكمة؛ أي مركز للبحث ومكتبةً، واستمر المروانيون يعتنون بهذا البيت حتى في أسفارهم وحروبهم يسألون عنه ويهتمون به[1].

وكانت بداية الجهود الحقيقية في الترجمة قد بدأت مع خالد بن يزيد بن معاوية أول من عني بنقل الطب والكيمياء إلى العربية، فقد أمر بإحضار جماعةٍ من اليونانيين ممن درسوا بمدرسة الإسكندرية في مصر وأتقنوا العربية كذلك، فطلب منهم نقل كثيرٍ من الكتب من اللسان اليوناني والقبطي إلى اللسان العربي، فكان هذا أوَّل نقلٍ في الإسلام[2].

كما طلب منهم أن يترجموا كتب جالينوس في الطب، فوضع بذلك أساس العلوم الطبية، وهو أول من اهتم بالترجمة والفلاسفة، وقرَّب أهل الحكمة ورؤساء كل صنعة، وتُرجمت كتب النجوم والطب والكيمياء، والحروب والآلات والصناعات. وخالد بن يزيد هو أول من جُمعت له الكتب فجعلها في خزانة الإسلام، ففي دمشق إذن أنشئت أول دارٍ للكتب في العالم الإسلامي[3].

وقد ظهرت دلائل كثيرة تدل على تزايد عدد المشتغلين في الطب في عهد معاوية بحيث أصبحت النسبة طبيباً لكل خمسمائة وأربعة وثلاثين فرداً، وهذه النسبة تمّ أخذها مما أورده ابن كثير من أن زياد بن أبيه والي البصرة حينما طُعن في يده جمع مائة وخمسين طبيباً ليداووه[4]، وكان عدد سكان البصرة ثمانين ألفاً تقريباً[5].

---

١ – الدولة الأموية، يوسف العش ص (٣٤٨).

٢ – الدولة الأموية، حمدي شاهين ص (٤٦٠).

٣ – خطط الشام (٤/٢٣ ـ ٢٤)، الدولة الأموية حمدي شاهين ص (٤٦٠).

٤– البداية والنهاية (١١/٢٦١).

٥– التطور الاقتصادي في العصر الأموي ص٢٥٥.

٥- الزراعة، والتجارة، والصناعة:

كان معاوية ﷺ يبدي اهتماماً كبيراً بتنمية الزراعة، ورفع مستوى إنتاجها، فكان يولّي عنايته لتطوير وسائل الري، وإخصاب الأراضي عن طريق الاستعانة بأصحاب الخبرة والاختصاص من السكان المحليين[١].

كما أنَّ يزيد بن معاوية كان يلقب بالمهندس نظراً لخبرته في الشؤون الزراعية، وإبداء اهتمامه بإصلاح أنظمة الريِّ والعناية بها، فقد أمر بحفر قناة سميت باسمه بنهر يزيد، وكانت هذه القناة في الأساس رافداً صغيراً بالكاد يروي ضيعتين بالغوطة، فقام يزيد بتوسيعها وتعميقها حتى أصبحت بعرض ستة أشبار، وبعمق ستة أشبارٍ كذلك، الأمر الذي أدى إلى زيادة تدفق المياه وغزارتها، بحيث أصبحت تكفي لري أراضٍ واسعةٍ في الغوطة[٢]، وبذلك أتيح المجال أمام المزارعين للقيام باستصلاح بعض أراضيهم المتروكة والعمل على استغلالها[٣].

وأمَّا على الصعيد التجاري؛ فقد كانت الأسواق المحلية مليئة بالحركة والنشاط، وقد أصبحت عاصمة الدولة (دمشق) مركزاً تجارياً مهماً، يعود فضل ذلك إلى الظروف السياسية الجديدة التي نشأت، فغيَّرت من سبل واتجاهات حركة التجارة عمَّا كانت عليه سابقاً في العصر البيزنطي، حيث أصبحت دمشق عاصمة للخلافة الأموية، ومحطاً للتجارة الشرقية[٤].

أمَّا الصناعة؛ فربما يكفينا أن نقف على وصف صناعة السفن؛ فمما يذكر عن دقَّةِ تنظيم هذه الصناعة؛ الاهتمام بتحديد أجور العمَّال، وتوفير الكميات

١- النزعات المادية، حسين مروة (٤٧٦/١) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي.

٢- تهذيب تاريخ دمشق (٢٤٥/١ ـ ٢٤٦).

٣- تاريخ بلاد الشام الاقتصادي في العصر الأموي ص١٤١.

٤ - تاريخ بلاد الشام الاقتصادي ص١٨٣.

الغذائية اللازمة لهم، كما حرصت الدولة على توفير سبلُ الراحة للعاملين في هذه الصناعة، وكان من بين ذلك رفعها كل ظلمٍ يقع على العامل، وتوفير وحداتٍ سكنيةٍ للعمال والمشرفين على هذه الصناعة بداخل دور الصناعة، وكذلك وحداتٍ لتموين السفن الحربية بالسرعة والدقة المطلوبة[1]، ونتج عن ذلك كله تطورٌ هائلٌ في حجم الأسطول البحري خلال العهد الأموي[2].

٦- الفتوحات:

لما استتبّ الأمر لمعاوية شرع بإرسال الجيوش إلى الجبهات كافة، لتنشر دين الله عزَّ وجل وتبلغ رسالة النبي الكريم، وسنقف عند أبرز الأحداث والنتائج في هذا البحث:

أ- على الجبهة البيزنطية:

وجَّه معاوية ﷺ جيوشه نحو أرض الروم، هادفاً من ذلك فتح عاصمتهم القسطنطينية، فأرسل الجنود؛ ففتحوا، وأوغلوا في أرض العدو، واستبسلوا في القتال، إلا أنَّ عوامل النصر لم تكتمل لهم، فعادوا أدراجهم حين طال بهم الحصار.

ب- على الجبهة الإفريقية:

اهتمَّ معاوية ﷺ بالفتوحات في الشمال الإفريقي، وذلك لتأمينها من الهجمات البحرية البيزنطية، فكان من أشهر قوَّاد الفتح الأموي في عهد معاوية؛ القائد العظيم عقبة بن نافع[3]، الذي عمل على بناء مدينة

١- النظم الإسلامية للعدوى ص٣٥٤، ٣٥٥.

٢- التطور الاقتصادي في العصر الأموي ص٢٤١.

٣- عقبة بن نافع بن عبد القيس (١ ق.هـ- ٦٣ هـ) من القادة العرب والفاتحين لبلاد الله في صدر الإسلام. واشتهر تاريخيا باسم «مرنك إفريقية»، وهو الاسم العربي لشمال قارة أفريقيا. فقد استطاع عقبة وجنوده أن يطهروا منطقة الشمال الأفريقي من=

القيروان[1]، ولكن كان بعد أن اكتمل بناء القيروان عام خمسة وخمسين أن عُزل عقبة بن نافع عن ولاية إفريقية، ثم أُعيد إليها عام اثنين وستين، حيث قام برحلته الجهادية المشهورة التي قطع فيها ما يزيد على ألف ميل من القيروان في تونس إلى ساحل المحيط الأطلسي في المغرب.

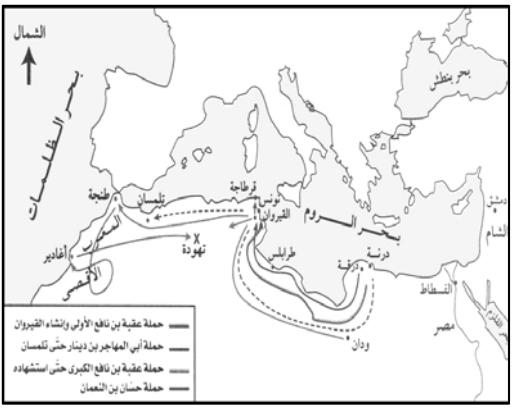

وبوصول عقبة بن نافع إلى ساحل المحيط الأطلسي يكون قد أنجز تحرير معظم بلاد المغرب، وتشير مصادرنا التاريخية أن عقبة لما وصل إلى المحيط الأطلسي قال: يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك[2].

=الحاميات الرومية المختلفة والحضارة البربرية. حتى أتى وادياً فأعجب بموقعه، فبنى به مدينته المشهورة وسماها القيروان أي محط الجند؛ ذلك أنها تعتبر قاعدة الجيش الإسلامي في المغرب الكبير. كما بنى بها جامعاً لا يزال حتى الآن يعرف باسم جامع عقبة.

١- القَيْرَوَان مدينة تونسية، تبعد نحو ١٦٠ كيلومتراً عن تونس العاصمة، ويعود سبب أهميتها إلى دورها الاستراتيجي في الفتح الإسلامي، فمنها انطلقت حملات الفتح نحو الجزائر والمغرب وإسبانيا وأفريقيا، بالإضافة إلى أنها مثوى لعدد من صحابة رسول الله ﷺ.

٢- الكامل في التاريخ (٢/٥٩٠)، البيان المغرب (١/٢٣-٢٧). قادة الفتح المغرب العربي (١/١٠٨-١٢٠).

ولم يقف عمل عقبة على الجهاد؛ بل رافق ذلك بناء المساجد مثل مسجد درعة ومسجد ماسة بالسوس الأقصى[1]، كما كان يترك نفراً من أصحابه يعلّمون الناس القرآن وشرائع الإسلام.

جامع القيروان:

يحتوي هذا المسجد على كنوز ثمينة؛ فمنبره يعتبر أقدم منبرٍ في العالم الإسلامي، وما زال مُحتفظاً به في مكانه الأصلي إلى الآن، حيث يعود بناؤه إلى القرن الثالث للهجرة / التاسع الميلادي. وكذلك مقصورته النفيسة التي تعود إلى القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر للميلاد وهي أيضاً أقدم مقصورة ما زالت محتفظةً بعناصرها الزخرفية الأصلية إلى الآن.

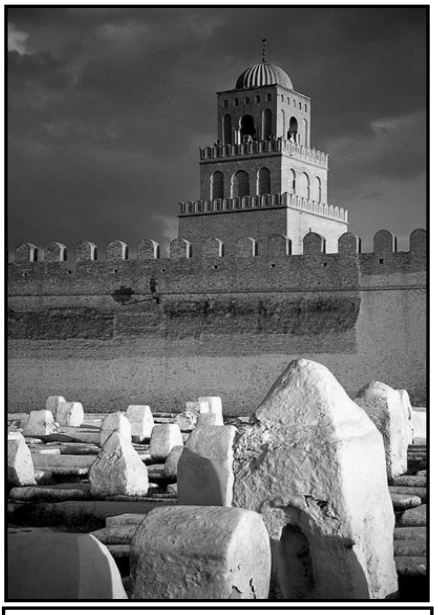

مئذنة جامع عقبة (القيروان)

أما مآذن المسجد فتتكون من ثلاث طبقات كلها مربعة الشكل، والطبقة الثانية أصغر من الأولى، والثالثة أصغر من الثانية، وفوق الطبقات الثلاث قبة مفصصة. يصل ارتفاع المئذنة الكلية إلى ٣١,٥ متراً.

١ – رياض النفوس (٢٦/١)، الإسلام والتعريب (١٣٣/١).

جامع عقبة بن نافع (القيروان) من الداخل

الواجهة الأمامية لجامع (القيروان)

ولاية العهد:

١- كيف جرت الأحداث:

جاء في نص الصلح الذي حدث بين معاوية والحسن والذي ذكره ابن الحجر الهيثمي:.. وتكون الخلافة من بعد معاوية شورى بين المسلمين(*).

كانت بداية الفكرة من معاوية، وكان يدرك أنَّه يقدم على أمرٍ خطير، لا بل على حدث لم يسبقه إليه أحد، ولهذا اصطفى زياداً- واليه على العراق- للاستشارة، وزيادُ هو الذي قال عنه الأصمعي: الدهاة أربعة: معاوية للرَّوِيَّة، وعمرو بن العاص للبديهة، والمغيرة بن شعبة للمعضلة، وزياد لكلِّ صغيرة وكبيرة. وقد أشار عليه زيادٌ بالهدوء فقبل. ولهذا لم يُقدم معاوية على هذا الأمر الخطير إلا بعد وفاة زياد[١].

قال الطبري: لما مات زياد، دعا معاوية بكتابٍ فقرأه على النَّاس باستخلاف يزيد إن حدث به حدثُ الموت، فيزيد وليُّ عهده، فاستوثق[٢] له الناس على البيعة ليزيد غير اثنين منهم[٣].

وعند تحليل مجريات الأمور نجد جبهتين متعارضتين في هذا الأمر؛ فأهل الشام لم يستغربوا فكرة توريث الخلافة، كما كان يستغربها أهل الحجاز، فقد عهِدوها من قبل خلال حكمِ البيزنطيين لهم، فاستجابوا لرغبة معاوية في جعل

١- نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي (١/١٩١).

٢- استوثق له الناس: اجتمعوا على رأيه.

٣- تاريخ الطبري (٦/٢٢١).

*- الصواعق المرسلة (٢/٢٩٩).

يزيد ولياً لعهده من بعده وكان ذلك بعد رجوع يزيد من غزوة القسطنطينية، وقد أدَّى طرح هذه الفكرة إلى قبول وإجماع من أهل الشام بالموافقة على بيعة يزيد، و لم يكن هناك أي معارض[1] من أهل الشام، بل قد أسهم أهل الشام فيما بعد في أخذ البيعة ليزيد من الأمصار الأخرى مثل الحجاز[2].

٢- الولايات كافة تبايع ليزيد إلا رجلين:

عقد معاوية ﷺ اجتماعاً موسعاً في دمشق بعد ما جاءت الوفود من الأقاليم وكانت هذه الوفود تضم مختلف رجالات القبائل العربية؛ من بلاد الشام، وأهل البصرة، ثمَّ تكلم كل زعيم من هؤلاء الزعماء ورحبوا بالفكرة وأثنوا عليها وأكدوا أن هذه هي الطريقة الأصوب لحقن الدماء وحفاظ الألفة والجماعة[3]، فحصلت المبايعة ليزيد بولاية العهد.

أمَّا حال المدينة فقد كان مخالفاً لذلك تماماً؛ فبعد أن أرسل معاوية ﷺ إلى الأقاليم يطلب منهم البيعة ليزيد أرسل إلى المدينة يطلب من أميرها ذلك أيضاً[4].

فقام مروان بن الحكم أمير المدينة خطيباً فحضَّ الناس على الطاعة وحذرهم الفتنة ودعاهم إلى بيعة يزيد إلا أنَّه لم يوفَّق في المهمة التي كلَّفه بها معاوية ﷺ، وعند ذلك قرر معاوية المجيء بنفسه إلى الحجاز ومعرفة موقف الصحابة ﷺ من هذه القضية المهمة ـ فجاء معتمراً في شهر رجب من سنة ٥٦هـ[5]، فلمَّا قدم

١- تاريخ خليفة ص(٢١١)، مواقف المعارضة في خلافة يزيد ص (٨٩).

٢- تاريخ فلسطين، هاني أبو الرب ص (٣١٩)، ٣٢٠، البيان والتبيين (٣٩٢/١).

٣- مواقف المعارضة في خلافة يزيد ص (٩٠).

٤- العقد الفريد (٣٧٠/٤، ٣٧٢) مواقف المعارضة ص٩٨.

٥- البداية والنهاية (٣٠٥/١١).

معاوية المدينة خطب بالناس وحثهم على البيعة وبيّن أن يزيد هو أحق الناس بالخلافة[1]، ثم قال: قد بايعنا يزيد فبايعوه.

لقد أجمعت -غالبية- الأمة على بيعة يزيد، ولم يمتنع عن البيعة ليزيد بعد وفاة معاوية إلا الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما. وسيكون لكل منهما مع يزيد شأن -كما سنرى بإذن الله تعالى- أما بقية الصحابة فقد بايعوا يزيد جمعاً للكلمة وحفظاً لوحدة الأمة وخوفاً من الفتنة، مثل عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، ومحمد بن الحنفية.

٣- أسباب ترشيح معاوية لابنه يزيد:

أ - الحفاظ على وحدة الأمة:

نظر معاوية ﷺ إلى ابنه يزيد على أنَّه المرشح الوحيد الذي سيحظى بتأييد أهل الشام الذين يمثلون العامل الأقوى في استقرار الدولة، فكان سبب إسراعه في أخذ البيعة ليزيد هو خوفه من الاختلاف[2]، الذي قد يطرأ على الأمة بعد موته، فربما تنخرط في قتالٍ جديدٍ لا يعلم سعته ومداه إلا الله عز وجل[3].

وكان معاوية يخاف أن يدع أمة محمد ﷺ كالضَّأن لا راعي لها[4] ولذلك عمل على اختيار من يخلفه، وكان الأولى به أن يعيِّن من أفاضل المجتمع الإسلامي رجالاً يجعلُهم موضع شورى يختارون من كان أهلاً للخلافة، ويبتعدَ عن ترشيح ابنه يزيد، لأن اختيار يزيد لم يكن أماناً من الاختلاف والقتال وسفك الدماء،

١- تاريخ خليفة ص (٢١٣، ٢١٤) إسناده حسن.

٢- دراسات في النظم، ص (٤١). د. توفيق اليوزكي.

٣- مواقف المعارضة من خلافة يزيد ص (١٣١).

٤- تاريخ الطبري (٦/٢٢٢).

ولقد وقع المحظور بعد وفاة معاوية، وسفكت الدماء ولم يُزِح اختيار معاوية لابنه يزيد ما تعلل به من المخاوف، ويبدو أنَّه وقع ما وقع بسبب شخصية يزيد، واتباع الوراثة بديلاً من الشورى في اختيار الخليفة ولأسباب أخرى.

وعلى كل حال فمعاوية ﷺ اجتهد، ولم يكن مصيباً في تولية يزيد لولاية العهد، فقد كان بوسعه وقدراته السياسة الفائقة أن يطمئنَّ في حياته على اجتماع كلمة المسلمين في أمر الخلافة من بعده باختيار واحدٍ من قريش يشهد له الناس بحسن السيرة أكثر من يزيد ابنه، ويجتمع عليه أعيان المجتمع الإسلامي في الشام والعراق وبلاد الحجاز وغيرها.

ب- محبة معاوية لابنه وقناعته به:

لا شك أنَّ الصحابة وأبناءهم أفضلُ من يزيد، وأصلح، ولكن مع ذلك فإنَّ معاوية ربما رأى في ولده مقدرة لا تكن لغيره في قيادة الأمة، بسبب عيشته المتواصلة مع أبيه ومناصرة أهل الشام وولائهم الشديد له، ثمَّ اطلاعه عن قرب على معطيات ومجريات السياسة في عصره.

وكانت ليزيد بعض الصفات التي شجَّعت معاوية على جعله ولياً للعهد، فقد قال الذهبي في ترجمة يزيد: كان قوياً شجاعاً، ذا رأي وحزم، وفطنة وفصاحة[1]، وقال ابن كثير: وكان يزيد فيه خصالٌ محمودة من الكرم، والحلم، والفصاحة، والشعر، والشجاعة، وحسن الرأي في الملك[2]، فربما كانت هذه الصفات دافعةً لمعاوية وكافيةً له ليكون صالحاً للخلافة[3].

١- سير أعلام النبلاء (٣٧/٤).

٢- البداية والنهاية (٦٤٦/١١).

٣- أحاديث وأحاديث فتنة الهرج ص (٢٠٤).

محكمــة

القاضي:

إنَّ معاوية ﷺ متَّهمٌ بأمر توريث الملـك لابنـه يزيـد، فقـد وجِّهـت لـه في هـذا الأمـر انتقاداتٌ كثيرة، لذلك رأينا أن نحكم في هـذا الأمر من نصوص التاريخ الـصادق، وشـهادة أئمته المنصفين.

هيئة الادعاء:

لقد حمَّل كـثيرٌ مـن المـؤرخين الـسابقين والمعاصرين لمعاوية ﷺ مسؤولية البيعة لابنـه، فمنهم من اتَّهمه بالخروج على نظام الشورى في الإســـلام، فكـــان أوَّل محطـــم لنظـــام الإسلام[1]، ومنهم من اتَّهم معاويـة بأنَّـه أقـرَّ النظام الذي يعتمد على الـسياسة أولاً وعلـى الـدين ثانيـاً[2]، والـبعض شـبَّه معاويـة بـالملوك الأقـدمين مـن الفـرس والـروم[3]، والبعض يجعل معاوية بهذه البيعة رائد المدرسة ((المكيافيليـة)) في الـسياسة القائمـة على تسويغ الوسيلة من أجل الغاية[4].

نيكولـــو ماكيـــافيلي (بالإيطاليـــة: Machiavelli Niccolò)
ولد في فلورنسا عام ١٤٦٩، وتـوفي فيها عام ١٥٢٧، كان مفكراً وفيلسوفاً سياسياً إيطالياً إبان عصر النهضة.
وقـد أصـبح ماكيـافيلي الشخـصية الرئيسية والمؤسس للتنظير الـسياسي الواقعي، والذي أصبح فيما بعد عصب دراسات العلم السياسي.
أشهر كتبه على الإطلاق كتاب الأمير والذي أيد فيه فكرة أن ما هو مفيد فهو ضروري.
ويعتبر أنه من المسموح به اسـتخدام كل الوسائل في الـصراع الـسياسي، **فماكيافيلي هو القائل: «الغايـة تبـرر الوسيلة».**

١- إسلام بلا مذاهب ص (٥٨) مصطفى الشكعة.

٢- نساء لهم في التاريخ الإسلامي نصيب، علي إبراهيم حسن ص (٥٨).

٣- مواقف المعارضة في خلافة يزيد ص (١٤١).

٤- ملامح التيارات السياسية، إبراهيم بيضون ص١٤٧.

هيئة الدفاع:

إنَّ معاوية ﷺ من خيار الملوك الذين غلب عدلهم على ظلمهم، وما هو ببريء من الأخطاء والله يعفو عنه[1]، والذي يجب أن نعتقده في معاوية أنَّ قلوبنا لا تنضوي على غلٍ لأحدٍ من أصحاب محمد ﷺ بل نقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر ١٠]. ونقول إنَّ معاوية ﷺ اجتهد للأمة خوفاً عليها من الانقسام والفتن، ولا يمكن أن يحملَ تبعات كل أخطاء الملوك والأمراء الذين جاؤوا من بعده.

وإذا كان معاوية قد حوّل الخلافة من الشورى إلى الملك، فإنَّ حفيده معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، ثالث خلفاء الأمويين قد أعاد الخلافة من الملك العضوض إلى الشورى الكاملة عندما عزل نفسه قائلاً: تركتم للشورى فاختاروا أفضلكم... فلم تستطع الأمَّة التي أعطيت حقها في اختيار خليفتها أن تعود إلى شكل من أشكال الاختيار السابق في عصر الراشدين، وبرز بوضوح دور العصبية الإقليمية والقبلية وحُسمَ الصراع الدائر حول منصب الخلافة لمصلحة البيت الأموي، واستطاعت الشام أن تحقق الحسم التاريخي بعمق الالتحام بين بِنَائها القبلي والوجود الأموي بها[2].

والحقيقة أنَّ بيعة يزيد قد قبلها الكثير من الصحابة رضوان الله عليهم فقد بايعه ستون منهم[3] خوفاً من الفتنة وحرصاً على وحدة الصف.

١- سير أعلام النبلاء (١٥٦/٣).

٢- الدولة الأموية المفترى عليها ص (٢٩٣ / ٢٩٤).

٣- مواقف المعارضة ص (١٥٣).

لقد توفي عبد الرحمن بن أبي بكر بعيد خروج معاوية من المدينة، ولم يبق من المعارضين إلا اثنين هم، ابن الزبير، والحسين بن علي، وأما ابن عمر فلما رأى الناس مجتمعةً على يزيد بايعه، وأرسل بيعته بعد وفاة معاوية رضي الله عنه وقال: إن كان خيراً رضينا به وإن كان بلاء صبرنا[*]، فانحصرت المعارضة في شخص ابن الزبير والحسين بن علي رضي الله عنهم.

النطق بالحكم:

بالرغم مما وقع من انحرافٍ في تغيير النموذج الأعلى لنظام الحكم الإسلامي، الذي تتمثل فيه روح الإسلام كاملةً وهو الخلافة، واستبدال الملك العضوض بها[1]، إلا أنَّ الطابع الإسلامي هو الصفة الغالبة على مظهر الدولة، وتصرفات الحكَّام، فالصلاة تؤدى في أوقاتها، والزكاة تحصَّل من أربابها، والصوم فريضة لا يُعارض في أدائها، وإقامة الحدود دون هوادة لم يقف شيءٌ دون تنفيذها، والجهاد في سبيل الله فريضةٌ ماضيةٌ بين رجالها، وبالجملة كانت تعاليم الإسلام مطبقة بحذافيرها[2].

إنَّ معاوية رضي الله عنه اجتهد على كلِّ حال، فإنَّ كان مصيباً فله أجران، وإن كان مخطئاً فله أجر[3].

١-كيف نكتب التاريخ الإسلامي ص (١١٢).

*- مصنف ابن أبي شيبة (١١/١٠٠) بسند صحيح.

٢- الأمويون بين المشرق والمغرب (١/٩٤، ٩٥).

٣- العالم الإسلامي في العصر الأموي ص١٢٦.

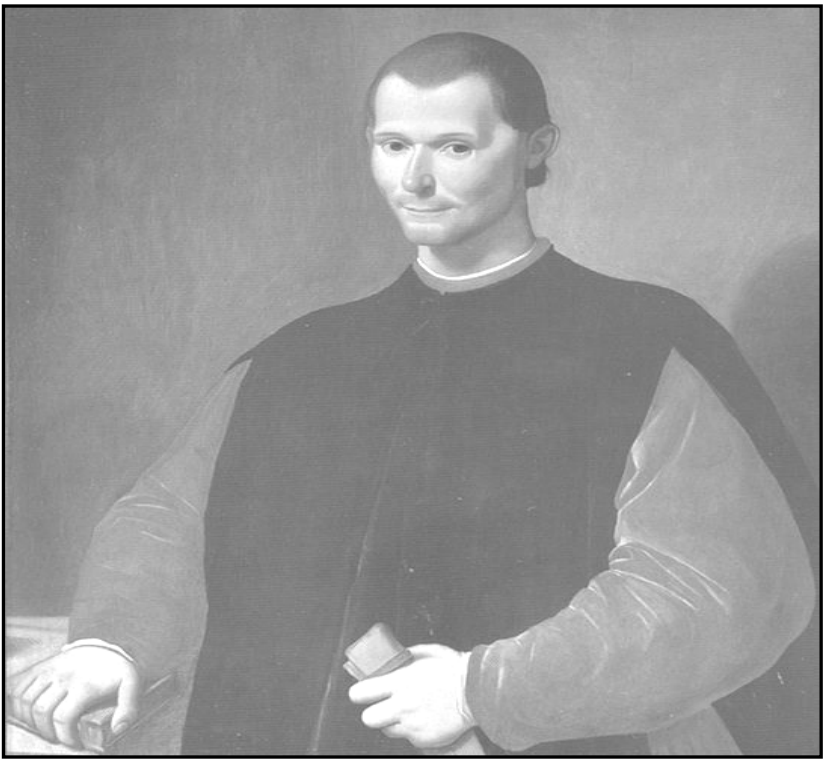

ماكيافيلي: مؤسس مدرسة التحليل والتنظير السياسي الواقعي

الأيام الأخيرة في حياة معاوية:

١ ـ وصية معاوية رضي الله عنه ليزيد:

لما حضر معاوية ﷺ الموت، وذلك سنة ٦٠هـ، وكان يزيد غائباً، فدعا بالضحاك بن قيس الفهري ـ وكان صاحب شرطته ـ ومسلم بن عقبة المري، فأوصى إليهما فقال: بلّغا يزيد وصيتي:

انظر أهل الحجاز فإنهم أصلك، فأكرم من قدم عليك منهم وتعهد مـن غـاب، وانظر أهل العراق، فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل، فإن عزل عاملٍ أحب إلي من أن تُشهر عليك مائة ألف سيف، وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك فإن نابك شيء من عدوك فانتصر بهم، فإن أصبتهم فاردد أهل الـشام إلى بلادهم، فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم، وإني لست أخاف من قريش إلا ثلاثة حسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبيـر؛ فأما ابن عمر فرجلٌ قد وقذه الدين، فليس ملتمساً قِبلك، وأما الحسين بن علـي فإن له رحماً ماسة، وحقاً عظيماً، وقرابةَ محمد ﷺ، ولا أظن أهـل العـراق تاركيه حتى يخرجوه، فإن قدرتَ عليه فاصفح عنه، فإني لـو أنـي صـاحبه عفوت عنه، وأما ابن الزبير فإنه خَب ضب، فإذا شَخَص لك فالبد لـه، إلا أن يلتمس منك صلحاً، فإن فعل فاقبل، واحقن دماء قومك ما استطعت(*).

*- تاريخ الطبري (٢٤١/٦).

٢- مرضه:

جعل معاوية رضي الله عنه لما احتضر يضع خده على الأرض ثم يُقلِّب وجهه ويضع الخد الآخر ويبكي ويقول: اللهم إنك قلت في كتابك: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ [النساء: ٤٨]، اللهم اجعلني ممَّن تشاء أن تغفر له(١)، ومن دعائه في ذلك اليوم: اللهم أقل العثرة، واعف عن الزلة وتجاوز بحلمك عن جهل من لم يَرْجُ غيرك، فإنك واسع المغفرة ليس لذي خطيئةٍ من خطيئته مهرب إلا إليك ثم مات(٢).

١- البداية والنهاية (٤٥٧/١١).

٢- المصدر نفسه (٤٥٧/١١).

وجاء في رواية: اللهم إني قد أحببت لقاءك فأحبب لقائي[1].

٣- سنة وفاته، ومن صلى عليه:

قال ابن حجر: مات معاوية في رجب سنة ستين على الصحيح[2].

وصلَّى على معاوية الضحاك بن قيس الفهري، وكان يزيد غائباً حين مات معاوية[3]. حيث خرج الضحاك حتى صعد المنبر وأكفانُ معاوية على يديه تلوح، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إنَّ معاوية كان عود العرب[4]، وحدّ العرب[5]، قطع الله عز وجل به الفتنة وملَّكهُ على العباد، وفتح به البلاد. ألا إنه قد مات، فهذه أكفانه فنحن مدرجوه فيها، ومدخلوه قبره، ومُخَلُّون بينه وبين عمله، ثم هو البرزخ إلى يوم القيامة، فمن كان منكم يريد أن يشهده فليحضر عند الأولى[6].

٤- نقش خاتمه: كان نقش خاتمه: لكل عمل ثواب[7]، وقيل: لا قوة إلا بالله[8].

١- تاريخ ابن خلدون (٣/٢١).

٢- الإصابة (٦/١٥٥).

٣- تاريخ الطبري (٦/٢٤٥).

٤- العود: الرجل المسن: لسان العرب (٣/٣٢١).

٥- حد كل شيء: منتهاه.

٦- أي عند صلاة الظهر كما ورد في بقية المصادر.

٧- تاريخ القضاعي، ص (٣٢٦).

٨- المصدر نفسه ص (٣٢٦).

(٢) يزيد بن معاوية
(٦٠-٦٤)، (٦٨٠-٦٨٤)

أولاً: اسمه ونسبه وكنيته:

هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس القرشي، يكنّى ((أبو خالد))[١].

ثانياً: ولادته ونشأته:

كانت ولادَةُ يزيد بن معاوية في خلافة عثمان ﷺ[٢]، في سنة ست وعشرين[٣]، وقيل إنَّ ولادته وولادة عبد الملك بن مروان كانت في سنة واحدة[٤].

نشأ مع والدته في البادية؛ حيث إنَّ والدته طلقها أبوه لرغبتها في العيش بالبادية، فعاش يزيد مع أمه وأخواله وهم زعماء قبيلة كلب، فأثرت في طباعه تلك النشأة فتراه يتميز بالفصاحة والخطابة والكرم، والشجاعة [٥].

ثالثاً: يزيد في جيش القسطنطينية:

قاد يزيد جيشاً من أعظم الجيوش في عصره، ويضم نخبة من الصحابة وأكابرهم وساداتهم وأبناءهم، ليتجه به إلى أهم جبهةٍ في الدولة الإسلامية، وهذا ما يدل على أن يزيد الذي كان يبلغ من العمر حين قيادة هذا الجيش ما بين

١- الاستيعاب (١٤١٦/٣)، تاريخ خليفة ص١٠.

٢- تهذيب التهذيب (٣١٦/١١ - ٣١٧).

٣- فوات الوفيات (٣٢٨/٤).

٤- تاريخ أبي زرعة (١٩١/١) مواقف المعارضة ص (٣٩).

٥- مواقف المعارضة (٤٣)، مآثر الأنافة (١١٥/١ - ١١٦).

(٢١-٢٣) كان يملك روحاً قيادية وكفايةً حربية[١]، فلم يعترض أحدٌ من الصحابة أو غيرهم على قيادة يزيد في تلك المرحلة.

رابعاً: أهم صفات يزيد بن معاوية:

١ ـ القوة والشجاعة:

قال عنه الذهبي: كان قوياً شجاعاً، ذا رأيٍ وحزمٍ وفطنة وفصاحة[٢]، إضافةً إلى تمكنه من قيادة الجيش الإسلامي الذي حاصر القسطنطينية وسيطرته على مجريات القتال[٣]، كما أنَّ من حزمه: أنَّ أبا أيوب الأنصاري مرض في غزوة القسطنطينية فأتاه يزيد عائداً، فقال: ما حاجتك يا أبا أيوب؟ قال: ادفني عند أسوار القسطنطينية. فلمَّا مات أمر يزيد بتكفينه، وحُمل على سريره، ثم أخرج يزيد الكتائب فجعل قيصرُ الروم يرى سريراً والناس يقتتلون فأرسل إلى يزيد: من هذا الذي أرى؟ قال: صاحب نبينا، وقد سألنا أن نقدمه في بلادك ونحن منفذون وصيته، أو تلحق أرواحنا بالله. قال القيصر: فإن وليَّت أخرجناه إلى الكلاب، فقال يزيد: إني والله ما أردت إيداعه بلادكم حتى أودع كلامي آذانكم، لئن بلغني أنَّه نُبش من قبره أو مُثِّلَ به، لا تركتُ بأرض العرب نصرانياً إلا قتلته، ولا كنيسةً إلا هدمتُها فبعث إليه قيصر: أبوك أعلم بك، فوحق المسيح لأحفظنَّه بيدي[٤].

٢ ـ الفصاحة والشعر:

ذكر الذهبي بأنه صاحب فصاحة[٥]، فقد كان شاعراً مجيداً[٦]، فاعتاد الناس أن

١- مواقف المعارضة ص(٦٣).
٢- سير أعلام النبلاء (٤/٧).
٣- مواقف المعارضة ص (٤٧).
٤- الاستبصار نسب الصحابة من الأنصار ص (٧٠، ٧١) للمقدسي.
٥- سير أعلام النبلاء (٤/٣٧).
٦- مواقف المعارضة ص٤٩.

يقولوا بُدئ الشعر بملكٍ، وخُتمَ بملك، إشارة إلى امرئ القيس وإلى يزيد[1].

وأما صفاته الخَلْقية: فقد كان ضخم الجسم سميناً طويلاً غليظ الأصابع كثيف الشعر جعده أسمر البشرة في وجهه أثر الجدري أحور العينيين حسن اللحية خفيفها، وبالجملة كان جميلاً[2].

خامساً: خروج الحسين بن علي رضي الله عنه:

١- اسمه ونسبه:

هو أبو عبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم، وريحانته ومحبوبه، ابن بنت رسول الله ﷺ، فاطمة رضي الله عنها، كان مولده سنة أربع للهجرة، ومات ﷺ قتيلاً شهيداً، في يوم عاشوراء من شهر المحرم سنة إحدى وستين هجرية بكربلاء من أرض العراق[3].

٢- أهم الأسباب التي أدت إلى خروج الحسين:

كان موقف الحسين ﷺ من بيعة يزيد بن معاوية هو موقف المعارض وشاركه في المعارضة عبد الله بن الزبير والسبب في ذلك: حرصهما على مبدأ الشورى وأن يتولى الأمة أصلحها.

ونذكر من أهم الأسباب التي أدت إلى خروج الحسين ﷺ:

١- إرادة الله عز وجل وأن ما قدره سيكون وإن أجمع الناس كلهم على رده فسينفذه الله، لا رادّ لحكمه ولا لقضائه سبحانه وتعالى[4].

١- الفخري في الآداب السلطانية ص١١٣ ابن طباطبا.

٢- سير أعلام النبلاء (٣٧/٤)، البداية والنهاية (٦٣٨/١١).

٣- سير أعلام النبلاء (٢٨٠/٢) الإصابة (١/ ٣٣١ ـ ٣٣٤).

٤- المصدر نفسه ص (٢٤٠).

٢- قلب الحكم من الشورى إلى الملك الوراثي: وذلك بسبب ما كان من عدم التزام معاوية بشروط الحسن في الصلح والتي من ضمنها ما ذكره ابن حجر الهيثمي:.. بل يكون الأمر من بعده شورى بين المسلمين[١].

فرأى الحسين في محاولة معاوية توريث الحكم من بعده لابنه يزيد مخالفة واضحة لمنهج الإسلام في الحكم، ومع ذلك فإنه لم يهتم بالخروج على معاوية، نظراً لمبايعته له بالخلافة، فظل على عهده والتزامه[٢]. ولكن بعد وفاة معاوية تغير الموقف، فالحسين لم يعد في عنقه بيعة توجب عليه السمع والطاعة.

إن موقف الحسين وفتواه ضد الحكم الأموي مرت بمرحلتين:

المرحلة الأولى:

مرحلة عدم البيعة ليزيد، وذهابه إلى مكة، وهذه المرحلة أسس فيها الحسين موقفه السياسي من حكم يزيد، بناء على نظرته الشرعية لحكم بني أمية، فهو يرى عدم جواز البيعة ليزيد، وذلك لسببين: فعلى الصعيد الشخصي فإن يزيد لا يصلح خليفة للمسلمين نظراً لانعدام توافر شرط العدالة فيه[٣]، كما أنَّ الحسين أفضل وأحق منه بمنصب الخلافة، فهو أكثر منه علماً، وصلاحاً وكفاية وأكثر قبولاً لدى الناس من يزيد، أما الصعيد السياسي فلانعدام شرط الشورى، والاستئثار بالسلطة للحكم الأموي، والذي يخالف المنهج الإسلامي في الحكم.

ولم يغب عن الحسين ﷺ قول النبي ﷺ: «من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية[٤]» ولكن فهمه لهذا الحديث أنَّه في حق من كان صالحاً

١- الصواعق المرسلة (٢/٢٩٩).

٢- أنساب الأشراف (٣/١٥٢)، مواقف المعارضة ص (١٨٠).

٣- الفقهاء والخلفاء، سلطان حثيلين ص (٢١).

٤- مسلم رقم ١٨٥١.

للخلافة وأهلاً لها وكان عن شورى المسلمين[1].

المرحلة الثانية:

وهي مرحلة العمل على مقاومة الحكم الأموي، وفي هذه الفترة كان ﷺ يراسل أهل العراق، وتقدم إليه الوفود، حتى رأى أنه لابد من مقاومة الظلم وإزالة المنكر وأن هذا أمر واجب عليه، وكانت شيعته بالعراق على اتصال به وتمت بينهم مراسلاتٌ كثيرة[2].

ومما يدل على حرصه على أن تكون فتواه وتحركاته السياسية في مقاومته للحكم الأموي تُماشي تعاليم الإسلام وقواعده، امتناعه عن البقاء في مكة عندما عزم على مقاومة يزيد حتى لا تستحل حرمتها وتكون مسرحاً للقتال وسفك الدماء، فيقول لابن عباس: لأن أقتل بمكان كذا وكذا أحب إلي من أن أقتل بمكة وتستحل بي[3].

٣ ـ مواقف الصحابة والتابعين من خروج الحسين:

أ ـ عبد الله بن عباس رضي الله عنه:

لما بلغ خبر عزمه على الخروج إلى ابن عمه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أتاه وقال: يا ابن عم أنه قد أرجف الناس أنك سائر إلى العراق، فبيّن لي ما أنت صانع ؟ قال: قد أجمعت المسير في أحد يومي هذين إن شاء الله تعالى، فقال له ابن عباس: أخبرني إن كان أتباعك قد قتلوا أميرهم ونفوا عدوهم وضبطوا بلادهم فسر إليهم، وإن كان أميرهم حي وهو مقيم عليهم، قاهر لهم

١- الفقهاء والخلفاء ص (٢٢).

٢- تاريخ الطبري (٦/٢٧٣، ٢٧٤).

٣- تاريخ الطبري نقلاً عن الخلفاء ص٢٥.

وعماله تجبي بلادهم فإنهم إنما دعوك للفتنة والقتال، ولا آمن عليك أن يستفزوا عليك الناس ويقلبوا قلوبهم عليك، فيكون الذين دعوك أشد الناس عليك.

فقال الحسين: يا ابن عم! والله إني لأعلم أنك ناصحٌ شفيق، ولكني قد عزمت على المسير. فقال له: فإن كنت ولا بد سائراً فلا تسر بأولادك ونسائك، فو الله إني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون إليه، إلى أن قال: فو الله الذي لا إله إلا هو لو أعلم أنك إذا أخذتُ بشعرك وناصيتك حتى يجتمع علي وعليك الناس أطعتني وأقمتَ لفعلت ذلك[1].

ب ـ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما:

نصح عبد الله الحسين ﷺ في أكثر من موقف، فحين بلغه خروج ابن الزبير والحسين إلى مكة رافضين بيعة يزيد لقيهما وقال: أذكركما الله إلا رجعتما فدخلتما في صالح ما يدخل فيه الناس وتنظران، فإن اجتمع عليه الناس لم تشذا، وإن افترق عليه كان الذي تريدان[2]، ولما قدم المدينة وبلغه خروج الحسين لأهل الكوفة لحقه ابن عمر على مسيرة ليلتين فقال: أين تريد؟ قال: العراق، ومعه وثائق وكتب تدل على بيعة أهل العراق، فقال: لا تأتهم، قال: هذه كتبهم وبيعتهم. فقال: إن الله خير نبيه بين الدنيا والآخرة، فاختار الآخرة، وإنكم بضعة منه، لا يليها أحد منكم أبداً، وما صرفها الله عنكم إلا للذي هو خير لكم، فارجعوا، فأبى، فاعتنقه ابن عمر، وقال: استودعك الله من قتيل[3]. وكان ابن عمر يقول بعد ذلك: «**غلبنا الحسين بن علي بالخروج، ولعمري لقد رأى في**

١- الكامل في التاريخ (٥٤٦/٢).

٢- الطبقات الكبرى تحقيق السلمي (٤٤٤/١).

٣- سير أعلام النبلاء (٢٩٢/٣).

أبيه وأخيه عبرة، ورأى من الفتنة وخذلان الناس لهم ما كان ينبغي له ألا يتحرك ما عاش وأن يدخل في صالح ما دخل فيه الناس، فإن الجماعة خير»[1].

جـ- الفرزدق:

في طريقه إلى الكوفة قابل الحسين الفرزدق الشاعر. فسأله الحسين بن علي عن تصوره لما يقوم به أهل الكوفة حياله، ثم أراد أن يعطي الفرزدق إيضاحاً أكثر حيث قال: هذه كتبهم معي، فرد عليه الفرزدق: يخذلونك فلا تذهب فإنك تأتي قوماً قلوبهم معك وأيديهم عليك[2].

٤- وهكذا بدأت القصة:

أ- مسلم بن عقيل يتجه إلى الكوفة:

بعد توافد الرسائل من زعماء الكوفة على الحسين ﷺ والتي تطلب منه المسارعة في القدوم إليهم، ولما كان العدد مشجعاً أراد أن يطلع على حقيقة الأمر، فبعث ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب ليتأكد من حقيقة الخبر، ثم يكتب إليه بواقع الحال، فإن كان ما يقولون حقاً قدم عليهم[3].

فلمَّا بلغ أهل الكوفة قدوم مسلم بن عقيل قدموا إليه فبايعه اثنا عشر ألفاً منهم[4]، وتمت تلك المبايعة بصورة سرية مع حرص شديد، ولما تأكد لمسلم بن عقيل رغبة أهل الكوفة في الحسين وقدومه إليهم كتب إلى الحسين: أما بعد، فإن الرائد لا يكذب أهله إن جميع أهل الكوفة معك فأقبل حين تنظر في كتابي[5]،

١- مختصر تاريخ دمشق (١٣٨/٧).

٢- البداية والنهاية (٥١٠/١١).

٣- تاريخ الطبري (٢٦٧/٦).

٤- تهذيب الكمال (٣٠١/٢) مواقف المعارضة ص (٢٣٢).

٥- أنساب الأشراف (١٦٧/٣).

وهنا تأكد للحسين ﷺ صدق نوايا أهل الكوفة وأنه ليس عليهم إمام كما ذكروا من قبل[1]، فلا بد في هذه الحالة أن يفي لهم بما وعدهم به، حين كتب إلى أهل الكوفة: وقد بعثت إليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي، وأمرته أن يكتب إلي بحالكم وأمركم ورأيكم، فإذا كتب إلي أنه قد أجمع رأي ملئكم وذوي الفضل منكم على مثل ما قدمت به رسلكم وقرأته في كتبكم، أقدم عليكم إن شاء الله[2]، فلما وصل إلى الحسين بن علي كتاب مسلم بن عقيل والذي طلب منه القدوم إلى الكوفة وأن الأمر مهيأ لقدومه تجهز وعزم على المضي إلى الكوفة بأهله وخاصته[3].

ب- موقف يزيد من أحداث الكوفة:

لم تعجب يزيد سياسة النعمان بن بشير والي الكوفة آنذاك فعزله من الولاية وعين بدلاً منه عبيد الله بن زياد وكتب إليه: «إن شيعتي من أهل الكوفة كتبوا إليّ يخبروني أن ابن عقيل بالكوفة يجمع الجموع ليشق عصا المسلمين فسر حين تقرأ كتابي هذا حتى تأتي أهل الكوفة فتطلب ابن عقيل، حتى تثقفه فتوثقه أو تنفيه، والسلام[4]. فقام ابن زياد بما وكل به، بل زاد في طغيانه بأن قتل مسلم بن عقيل.

جـ- وصول خبر مقتل مسلم بن عقيل للحسين، وملاقاته طلائع جيش ابن زياد:

خرج الحسين ﷺ من مكة يوم التروية الموافق لثمان من ذي الحجة سنة ستين، ومضى في طريقه قاصداً الكوفة و لم يكن يعلم بتلك التغيرات التي حدثت هناك، حتى بلغه خبر مقتل مسلم بن عقيل وأن ابن زياد قد اتخذ إجراءات

١- تاريخ الطبري (٦/٢٧٢).

٢- المصدر نفسه (٦/٢٧٤).

٣- المصدر نفسه (٦/٣٠٥).

٤- المصدر نفسه (٦/٢٧٨).

صارمة على أتباع الحسين في الكوفة مفادها أن كل من يدعو لبيعة الحسين مصيره القتل والتشريد[1].

عندها شعر الحسين بتخاذل أهل الكوفة وانصرافهم عنه، وحزن لخبر مقتل ابن عمه؛ لذا أعلم القوم الذين معه: من أحب أن ينصرف فلينصرف؛ فتفرق الناس عنه يميناً وشمالاً[2]، وقال له بعض من ثبتوا معه: ننشدك الله إلا ما رجعت من مكانك، فإنه ليس لك بالكوفة ناصر ولا شيعة، بل نتخوف أن يكونوا عليك، فوثب بنو عقيل إخوة مسلم وقالوا: والله لا نبرح حتى ندرك ثأرنا أو نذوق كما ذاق مسلم[3].

فتابع الحسين سيره إلى الكوفة حتى وصل كربلاء وحينها أدركته خيل عمر ابن سعد ومعه شمر بن ذي الجوشن[4]، فبدأ الحسين بن علي بالتفاوض مع عمر ابن سعد، وبيّن الحسين ﷺ أنه لم يأت إلى الكوفة إلا بطلب من أهلها.

كان الجيش الذي يقوده عمر بن سعد مكوناً من أربعة آلاف مقاتل ووجهته في الأصل إلى الري لجهاد الديلم، فلما طلب منه ابن زياد أن يذهب لمقاتلة الحسين رفض عمر ابن سعد في البداية هذا الطلب، ولكن ابن زياد هدده إن لم ينفذ أمره بالعزل وهدم داره وقتله، وأمام هذا الخيار رضي بالموافقة [*].

فكتب عمر بن سعد لابن زياد بما سمعه من الحسين وقال: «بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد، فإني حيث نزلت بالحسين بعثت إليه رسولي، فسألته عما أقدمه وماذا يطلب، فقال: كتب إلي أهل هذه البلاد وأتتني رسلهم فسألوني

١- مواقف معارضة، ص (٢٦٦).

٢- تاريخ الطبري (٣٢٣/٦).

٣- المصدر السابق.

٤- أنساب الأشراف (١٦٦/٣). *- تاريخ الطبري (٣٣٥/٦).

القدوم ففعلت، فأما إذا كرهوني، فبدا لهم غير ما أتتني به رسلهم فأنا منصرف عنهم». فلما قُرئت الرسالة على ابن زياد تمثل قول الشاعر:

الآن إذا علقت مخالبنا به يرجو النجاة ولاة حين مناص

كتب ابن زياد لعمر بن سعد: «بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد فقد بلغني كتابك، وفهمت ما ذكرت، فاعرض على الحسين أن يبايع ليزيد بن معاوية، فإذا فعل ذلك رأينا رأيَنا والسلام». ولما اطلع عمر بن سعد على جواب ابن زياد ساءه ما يحمله الجواب من تعنّت، وعرف أن ابن زياد لا يريد السلامة[1].

أما الحسين فقد رفض عرض ابن زياد بادئ الأمر، ثمَّ لما رأى خطورة الموقف طلب من عمر بن سعد مقابلته[2]، وعرض عليه عرضاً آخر يتمثل في إجابته واحدة من ثلاث نقاط[3]:

أ – أن يتركوه فيرجع من حيث أتى.

ب– وإما أن يتركوه ليذهب إلى الشام فيضع يده في يد يزيد بن معاوية.

جـ– وإما أن يسيّروه إلى أي ثغر من ثغور المسلمين فيكون واحداً منهم له ما لهم وعليه ما عليهم[4].

وبذلك أكد الحسين ﷺ موافقته للذهاب إلى يزيد[5].

١– تاريخ الطبري (٦/٣٣٧).

٢– المحن لأبي العرب ص (١٥٤).

٣– المصدر نفسه .

٤– المصدر نفسه.

٥– أنساب الأشراف (٣/١٧٣، ٢٢٤) بإسناد صحيح وتوبع عند الطبري بإسناد صحيح.

كتب عمر بن سعد إلى ابن زياد بكتاب أظهر فيه أن هذا الموقف المتأزم قد حُلّ، وأن السلام قد أوشك، وما على ابن زياد إلا الموافقة[1]. وبالفعل فقد أوشك ابن زياد أن يوافق ويرسله إلى يزيد، لولا تدخل شمر بن ذي الجوشن الذي كان جالساً في المجلس حين وصول الرسالة فقد اعترض على رأي ابن زياد في أن يرسله إلى يزيد، وبيّن لابن زياد أن الأمر الصائب هو أن يطلب من الحسين أن ينزل على حكمه- أي ابن زياد- حتى يكون هو صاحب الأمر المتحكم فيه[2].

فلما وصل الخبر إلى الحسين ﷺ رفض الطلب وقال: لا والله لا أنزل على حكم عبيد الله بن زياد أبداً[3]، وقال لأصحابه الذين معه أنتم في حل من طاعتي، ولكنهم أصرّوا على مصاحبته والمقاتلة معه حتى الشهادة[4].

وهكذا انتهت القصة:

في صباح يوم الجمعة عام ٦١هـ نظم الحسين ﷺ أصحابه وعزم على القتال وكان معه اثنان وثلاثون فارساً، وأربعون راجلاً. وبدأت المعركة سريعة وكانت مبارزة في بداية الأمر وجُوبه جيش عمر بن سعد بمقاومة شديدة من قبل أصحاب الحسين؛ حيث إن مقاتلتهم اتسمت بالفدائية فلم يعد لهم أمل في الحياة[5]، وكان الحسين ﷺ في البداية لم يشترك في القتال، فأصحابه يدافعون عنه، وكان جيش عمر بن سعد يتدافعون ويخشى كل فردٍ منهم أن يبوء بقتله وتمنوا أن يستسلم، ولكن الحسين ﷺ لم يبد شيئاً من الليونة، بل كان يقاتلهم

١- تاريخ الطبري (٦/٣٤٠).

٢- المصدر (٦/٣٤٠، ٣٤١)

٣-حقبة من التاريخ ص١٣٢، تاريخ الطبري (٦/٣٤٢).

٤- تاريخ الطبري (٦/٣٤٦)

٥- المصدر نفسه (٦/٣٥٠).

بشجاعة نادرة، عندئذ خشي شمر بن ذي الجوشن من انفلات زمام الأمور فصاح بالجند وأمرهم بقتله، فقتل ﷺ في محرم في العاشر منه سنة إحدى وستين[1].

فمن المسؤول عن قتل الحسين رضي الله عنه:

إن المسؤول عن قتل الحسين أطراف متعددة منها:

١- أهل الكوفة: إن أهل الكوفة هم الذين كاتبوا الحسين بن علي وهو في المدينة ومنّوه بالخروج حتى خرج إليهم بالرغم من تحذيرات الصحابة له بعدم الخروج، ولما عين ابن زياد أميراً على الكوفة تأخر الناس عن نصرة الحسين وعن تأييده بل انخرطوا في الجيش الذي حاربه وقتله[2].

يذكر أن ابن عمر رضي الله عنهما قال لوفد من أهل العراق حينما سألوه عن دم البعوض في الإحرام فقال: عجباً لكم يا أهل العراق تقتلون ابن بنت رسول الله ﷺ وتسألون عن دم البعوض[**]

٢- عبيد الله بن زياد: إنَّ نفسه كانت ميالة للشر بطبيعتها، متطلعة إلى الغلو في مسيرتها، متعطشة إلى الدماء في سلطانها، وإلا فماذا كان عليه لو أنَّه نهر شمر وعنَّفه وردعه على قوله، واستمر في قبول خطة السلم التي عرضها الحسين ﷺ. لقد كان يجب على ابن زياد أن يلبي مطالب الحسين، وأن يتركه يذهب إلى يزيد، أو أي مكان آخر. وفي هذا يقول الدكتور يوسف العش: «وينبغي لنا أن نقول إنَّ المسؤول عن قتل الحسين هو أولاً شمر، وثانياً عبيد الله بن زياد»[3].

١- تاريخ الطبري (٣٢٥).

٢- أنساب الأشراف (٢٢٧/٣)، مواقف معارضة، ص (٢٨٨).

**- مسند أحمد رقم ٥٥٦٨ إسناده صحيح.

٣- الدولة الأموية ص (١٧٢).

٣ ـ عمر بن سعد بن أبي وقاص قائد الجيش: وهو من المسؤولين على قتل الحسين ﷺ فقد كانت نفس ابن سعد متعلقة بالدنيا وحب الإمارة ومشغولة بالمنصب وتقلد الإدارة.. والحق يقال: إنه اجتهد في محاولة إيجاد الصلح بين الطرفين، لكنه لم يفلح.

إن النفوس المتطلعة إلى الدنيا، تنسى في سبيلها شهامة الرجال، ومروءة الكرام بل تنسى ما هو أعظم من ذلك وقوفها بين يدي الله عز وجل، وأنها ستحاسب على كل عمل تعمله، بل تنسى بديهيات الأمور، حيث تنسى فناء الدنيا، وزوال المنصب، وضياع الجاه والسلطان[**].

٤– يزيد بن معاوية: أما يزيد، فظاهر الأمر أنه كره قتل الحسين ﷺ وحاول أن يمنعه من الخروج، ولكنَّ بكاءه على الحسين، وسب ابن مرجانة لا يرفع اللوم عن يزيد، ولا يخليه من تبعة قتل الحسين وأصحابه؛ ذلك لأنه كان قادراً على أن يوجه أوامر صريحة لابن زياد بعدم قتل الحسين رضي الله عنه، والتصرف معه بكل حكمة وتعقل، حفظاً لرحمه وقرابته من رسول الله ﷺ ومكانته في قلوب المسلمين[١].

إن تحمل يزيد لمسؤولية قتل الحسين ﷺ قائمة. كيف وقد قتل في خلافته وعلى أرض تسيطر عليها جيوشه، وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحمّل نفسه مسؤولية بغلة عثرت في العراق أو في الشام، لم يسو لها الطريق، فكيف إذا كان القتلة هم جند أمير المؤمنين[٢]؟!.

**-الأمويون بين المشرق والمغرب (١/٢٤٤).

١- العالم الإسلامي في العصر الأموي ص (٤٧٨).

٢- الأمويون بين المشرق والمغرب (١/٢٤٥).

سادساً: أقوال الناس في يزيد:

كان يزيد ملكاً من ملوك المسلمين، له حسناتٌ وسيئات، ولم يكن كافراً، ولم يكن صحابيًّاً ولا من أولياء الله الصالحين، وهذا قولُ عامة أهل العقل والعلم والسنة والجماعة. ثمَّ افترقوا ثلاث فرق: فرقةٌ لعنته، وفرقةٌ أحبته، وفرقة لا تسبه ولا تحبه[1]. وإلى هذا القول الأخير نميل.

سابعاً: وفاة يزيد بن معاوية:

في عام ٦٤هـ هلك يزيد بن معاوية، وكانت وفاته بقريةٍ من قرى حمص، وهو ابن ٣٨سنة.

وكان نقش خاتمه: ربنا الله[2].

١- الدولة الأموية، د. الصلابي، ص (٦١٣).

٢- تاريخ القضاعي، ص (٣٣٢).

(٣) معاوية بن يزيد
(٦٤هـ)، (٦٨٤م)

١- اسمه ونسبه، وشيء من صفاته:

معاوية بن يزيد: ثالث الخلفاء الأمويين، وكنيته أبو يزيد أو عبد الرحمن، أبوه يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، ويسمى معاوية الأصغر[١]، ولد سنة ٤٤هـ، فنشأ في بيت الخلافة، وبويع له بالخلافة بعد موت أبيه.

كان رحمه الله أبيض شديد البياض، كثير الشعر، كبير العينين، جعد الشعر، أقنى الأنف، مدور الرأس، جميل الوجه، كثير شعر الوجه، دقيقه، حسن الجسم، وكان رجلاً صالحاً ناسكاً [٢].

٢- مُدَّة حكمه:

يختلفُ المؤرخون كثيراً في المدة التي حكمها معاوية بن يزيد، ويتراوح الخلاف بين عشرين يوماً وثلاثة أشهر، ويرجّحُ بعض المؤرخين مدَّة أربعين يوماً، وكان مريضاً مدة ولايته[٣].

٣- تنازله عن الخلافة وتركه للأمر شورى:

لما أحس معاوية بن يزيد بالموت نادى في الناس الصلاة جامعة وخطب فيهم، وكان مما قال: «أيُّها الناس إني قد وُليت أمركم وأنا ضعيف عنه، فإن أحببتم تركتها لرجلٍ قوي، كما تركها الصدِّيق لعمر، وإن شئتم تركتها شورى في ستَّةٍ كما تركها عمر بن الخطاب، وليس فيكم من هو صالحٌ لذلك وقد

١- الأمويون بين المشرق والمغرب (٢٨٦/١).

٢- البداية والنهاية (٦٦٣/١١).

٣- المصدر نفسه (٦٦٢/١١).

تركت أمركم، فولُّوا عليكم من يصلح لكم»، ثمَّ نزل ودخل منزله، فلم يخرج حتَّى مات رحمه الله تعالى[1].

قد أراد معاوية بن يزيد أن يقول لهم: إنه لم يجد مثل عمر ﷺ، ولا مثل أهل الشورى ﷺ، فترك لهم أمرهم يولون من يشاؤون.

وعُدَّ هذا الموقف منه دليلاً على عدم رضاه عن تحويل الخلافة من الشورى إلى الوراثة[2]، فقد رفض أن يعهد لأحدٍ من أهل بيته حينما قالوا له: اعهد إلى أحد من أهل بيتك، فقال: والله ما ذقت حلاوة خلافتكم، فكيف أتقلَّد وزرها، وتتعجلون أنتم حلاوتها، وأتعجل مرارتها، اللهم إني بريءٌ منها، مُتخلٍّ عنها[3].

فإذا كان معاوية بن أبي سفيان أول الخلفاء الأمويين قد حوَّل الخلافة من الشورى إلى الملك، فإنَّ حفيده معاوية الثاني، ثالث خلفاء الأمويين أيضاً، قد أعاد الخلافة من الملك العضوض إلى الشورى الكاملة، وإنَّه لِمَّا يستوجب الإنصاف أن تصاغ القضية على هذا النحو بدلاً من التركيز على الشق الأول الخاص بمعاوية بن أبي سفيان وتوريثه الخلافة لأبنائه فقط. فها هو حفيده يعيدها للشورى[4].

٤- أزمة خطيرة بعد وفاة معاوية بن يزيد:

كان معاوية بن يزيد قد أحدث أزمةً خطيرةً، فقد كان أخوه خالدُ بن يزيد صبياً صغيراً، وكان أمر عبد الله بن الزبير قد استفحل وبايع له الناس من أنحاء الدولة، فرأى فريق من جند الشام على رأسهم الضحاك بن قيس أمير دمشق أن

١- البداية والنهاية (١١/٦٦٣، ٦٦٤).

٢- العالم الإسلامي في العصر الأموي ص١٣٧.

٣- مروج الذهب (٣/٨٢).

٤- الدولة الأموية المفترى عليها ص٢٩٣.

يبايعوا لابن الزبير، وحتى مروان بن الحكم كبيرُ بني أمية فكَّر في الذهاب إلى ابن الزبير ليبايعه ويأخذَ منه الأمان، ولكن سائر الجند والقادة بزعامة حسان بن مالك زعيمِ القبائل اليمنية الذين كانوا أقوى المؤيدين لبني أمية وهم أخوال يزيد رفضوا أن يخرج الأمر عن بني أمية وأن يبايعوا لابن الزبير، فحدث خلافٌ شديدٌ ولبث الشام ستَّة أشهرٍ بدون إمام، واتفق القوم أخيراً على أن يعقدوا مؤتمراً للشورى، يبحثون فيه عمَّن يصلحُ للخلافة، فكان اختيارهم لمروان بن الحكم[1].

ويعد معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان آخر خلفاء الفرع السفياني، وانتقلت الخلافة بعده إلى الفرع الثاني من بني أمية، أي المروانيين، فكان أوَّلهم مروان بن الحكم.

١- النظريات السياسية الإسلامية، محمد ضياء الريس صـ٢٠٢.

(٤) مروان بن الحكم
(٦٤-٦٥هـ)، (٦٨٤-٦٨٥م)

أولاً: اسمه ونسبه، وأعماله قبل الخلافة:

هو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، الملك أبو عبد الملك القرشي الأموي[١].

كان كاتب ابن عمه عثمان بن عفان، ودافع عنه يوم الدار، وكان يتتبع قضاء عمر وتولى ولاية المدينة في عهد معاوية، وكان الحسن والحسين يصليان خلفه[٢].

ثانياً: توليه الخلافة:

بعد تنازل معاوية بن يزيد عن الخلافة، ترك الأمر شورى بين رجال قومه، فعُقد نتيجةً لذلك مؤتمر الجابية؛ حيث اجتمع أهل الحل والعقد والقوة في الشام فأجمعوا رأيهم على مروان بن الحكم؛ فهو شيخ البيت الأموي والمشهور بينهم بالحكمة والذكاء، فبويع لمروان بالخلافة بإجماع الحاضرين، فكانت طريقة توليه الخلافة شوريَّة دستوريَّة.

أصبح في العالم الإسلامي خليفتان عبد الله بن الزبير المعارض للحكم الأموي والمتحصن بمكة المكرمة، ومروان بن الحكم المنتخب من أهل القوة في عاصمة الخلافة، ولما كان لا بد من توحيد الدولة الإسلامية فقد كان على أحدهما أن يتغلب على الآخر، ويتم التوحيد وتجمتع الأمة من جديد؛ فكانت الحروب والمعارك بينهما[*].

١- سير أعلام النبلاء (٣/٤٧٦).

٢- المصدر السابق نفسه.

*- الدولة الأموية، د. الصلابي، ص (٧٢٨).

ثالثاً: أعماله لتوحيد الأمة، وولاية العهد:

بدأ مروان بن الحكم بتوحيد صفوفه والدخول في صراعٍ ضدَّ ابن الزبير- الذي كان يطلب الخلافة لنفسه-، ولم يبدأ مروان بمواجهة ابن الزبير في الحجاز، وإنما لجأ إلى انتزاع الأقاليم البعيدة التي استطاع ابن الزبير السيطرة عليها، وذلك ليقلل من نفوذه، ومن ثمَّ يتيسر له القضاء عليه[1].

فنجح مروان في استرداد مصر في جمادى الآخرة سنة ٦٥هـ [2]، وأقام فيها شهرين لترتيب الأوضاع ويطمئن على أمنها.

لما عزم مروان على العودة من مصر إلى الشام عين ابنه عبد العزيز والياً عليها، وأوصاه وصيةً تدل على حنكةٍ سياسية، وخبرةٍ واسعة، فقد كان عبد العزيز قد استوحش من بقائه في مصر، فقال لأبيه يا أمير المؤمنين! كيف المقام ببلدٍ ليس به أحد من بني أبي ؟ فقال له يا بني عمهم بإحسانك يكونوا كلهم بني أبيك، واجعل وجهك طلقاً تصفُ لك مودتهم، وقد جعلت لك أخاك بشراً مؤنساً، وموسى بن نصير وزيراً ومشيراً، يا بني أن تكـون أميـراً بأقصى الأرض، أحسن من إغلاق بابك وخمولك في منزلك[*].

ختم مروان أعماله بعقد البيعة لولديه عبد الملك، وعبد العزيز، ويعدُ بعض المؤرخين أن هذا الأمر كان من أهم أعماله، وذلك لحفظ الخلافة في البيت المرواني من جهة، ولوضع حد للتنافس على الخلافة، وتفادي المشاكل التي ربما تحدث بشأنها، كما حدث بعد موت معاوية الثاني من جهةٍ أخرى[3].

١- عبد الله بن الزبير، ص (١٥٢).

٢- العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (١٤٤).

*- الولاة والقضاة، ص (٤٧).

٣- الدور السياسي لأهل اليمن في الشام، ص (٥٨).

رابعاً: وفاته:

توفي مروان بن الحكم بدمشق لثلاثٍ خلون من شهر رمضان سنة ٦٥هـ، وهو ابن ثلاثٍ وستين سنة، وصلى عليه ابنه عبد الملك، وكانت مدَّة حكمه تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً ودفن بين باب الصغير وباب الجابية، وكان نقش خاتمه: العزة لله.

القائد الناجح هو ذلك الرجل الذي يتحمل المسؤولية فهو لا يقول غُلب رجالي إنما يقول غُلبت أنا ...فهذا هو الرجل حقاً.

(٥) عبد الملك بن مروان
(٦٥-٨٦هـ)، (٦٨٥-٧٠٥م)

أولاً: اسمه ونسبه ومولده:

هو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أميَّة، أبو الوليد الأموي، وهو أول من سُمي باسم عبد الملك في الإسلام[١].

كان مولده ومولد يزيد بن معاوية في سنة ستٍ وعشرين، وقد كان عبد الملك قبل الخلافة من العُبَّاد الزُهّاد الفقهاء، الملازمين للمسجد، وكان أبيض ليس بالنحيف ولا البادن، مقرون الحاجبين، كبيرهما، دقيق الأنف أبيض الرأس واللحية حسن الوجه[٢].

ثانياً: ثناء الناس عليه:

قال ابن عمر رضي الله عنهما: ولد الناس أبناءً، وولد عبد الملك أباً [٣].

ويقصد ابن عمر أنَّ عبد الملك كان يفوق سنَّه، ويعلو فوق أقرانه [٤].

حوادث التاريخ قيم المستقبل:

روى ابن سعد ما يدل على أنَّ عبد الملك كان محبوباً من عمومته كبار بني أمية، فذكر أنَّه: كان معاوية بن أبي سفيان جالساً يوماً ومعه عمرو بن العاص

١- البداية والنهاية، (٣٧٧/١١).

٢- المصدر السابق، (٣٧٩/١١).

٣- المصدر السابق نفسه.

٤- الخلافة الأموية، للهاشمي، ص (١١٦).

رضي الله عنهما، فمرَّ بهما عبد الملك، فقال معاوية: ما أشد أدب هذا الفتى، وأحسن مروءته فقال ابن العاص: يا أمير المؤمنين، إنَّ هذا الفتى أخذ بثلاث وترك ثلاثاً: أخذ بحسن الحديث إذا حدَّث، وحسن الاستماع إذا حُدِّث، وحسن البشر إذا لُقي، وترك من القول ما يعتذر عنه، ومخالطة اللئام من الناس، وممازحة من لا يوثق بعقله ولا مروءته [1].

ثالثاً: سقوط عبد الله بن الزبير:

بدأ عبد الملك معاركه مع ابن الزبير وفق القاعدة التي رسمها له والده مروان، وهي استعادة الأقاليم التي استولى عليها ابن الزبير، وحصره بالحجاز الذي جعله عاصمةً له، فكان انتصار عبد الملك على مصعب بن الزبير وليِّ العراق لأخيه عبد الله إيذاناً بانتهاء دولة عبد الله بن الزبير، الذي ما عاد باستطاعته الصمود؛ لافتقاره إلى المال والرجال.

حينها قام عبد الملك بإعداد جيشٍ للقضاء نهائياً على ابن الزبير، فوقع الاختيار على الحجاج بن يوسف[2]، فانطلق الجيش إلى مكة لمحاصرة ابن الزبير[3].

لم يكن الحجاج من النوع الذي يصبر على عدوه، فكان أن أرسل إلى عبد الملك بن مروان يطلب منه الإذن بقتاله داخل مكة واستخدام المنجنيق، فأجابه

١- الطبقات، لابن سعد (٥/٢٤٤)

٢- ولد أبو محمد الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي في منازل ثقيف بمدينة الطائف، في عام الجماعة ٤١هـ. وكان اسمه كليب ثم أبدله بالحجاج. ومن أعماله أن قد بنى مدينة واسط، وسير الفتوحات لفتح المشرق، وأمر بتنقيط المصحف، وخطط الدولة، وحفظ أركانها قامعاً كل الفتن. وأما عن مذهبه في الحكم فقد كان الحجاج يرى بتكفير الخارج على السلطان، وطرده من الملة، لذلك كان يرى ما يفعله تقرباً لله يرجو به الأجر.

٣- عبد الله بن الزبير، للخراشي، ص (١٨٩).

عبد الملك بقوله: افعل ما ترى[1].

فنصب الحجاج المنجنيق على جبال مكة وبدأ بضرب ابن الزبير داخل الحرم ضرباً متواصلاً، فحاول العديد ممن مع ابن الزبير إقناعه بقبول أمان الحجاج، فلم يستجب لمطلبهم، وأصرَّ على القتال، ولم يمنعه كِبر سنه وخذلان من حوله من الثبات على مبدئه وهو إعادة الخلافة إلى الشورى[2]. حتَّى غلبَه الحجاج وتمكَّن من قتله يوم الثلاثاء من جمادى الآخرة وله ثلاث وسبعون سنة[3].

رابعاً: أسباب سقوط ابن الزبير:

ليس بمستغربٍ أن يتفوَّق بنو أميَّة على ابن الزبير، الذي لم تتح له الفرصة لأن يتولى إقليماً من الأقاليم يكتسب فيه خبرةً إداريةً، في حين أنَّ بني أميَّة تهيَّأت لهم العديد من الفرص في عهد معاوية ﷺ، وفي الجانب العسكري نلمس تفوق الأمويين على ابن الزبير من حيث التكتيك الحربي، وقيادة الجيوش، ولعل من أبرز ما يلاحظ: أنَّ مروان بن الحكم قد خرج بنفسه على جيشٍ كبير ليضمَّ مصر، وابنه عبد الملك فعل الأمر نفسه لضمِّ العراق، فهذا أتاح لهما التعرف عن كثب لما يدور في ساحة القتال، وبالمقابل نرى ابن الزبير يعتمد على قوَّاده وولاته في حروبه، وقد انتقد عبد الملك سياسة ابن الزبير إذ قال: «**لو كان عبد الله بن الزبير خليفةً كما يزعم لأبدى صفحته، وآسى أنصاره بنفسه، ولم يغرز ذنبه في الحرم**»[4].

١- أنساب الأشراف (٣٥٨/٥).

٢- عبد الله بن الزبير، للخراشي، ص (١٩١).

٣- الكامل في التاريخ (٧٣/٣).

٤- الطبقات، (٢٣٢/٥).

ومن هذا نلاحظ أنَّ بني أميَّة منذ صراعهم مع ابن الزبير كانوا دائماً في موضع المهاجم، بعكس ابن الزبير الذي ظلَّ في موقف الدفاع[1]. وبمقتل ابن الزبير اجتمعت الأمة على عبد الملك ليصبح هو الخليفة الشرعي.

فقد أثبت عبد الملك كفاية عاليةً في إدارة الدولة وسياستها، فكان يمضي إلى هدفه بعزيمة ثابتة، لا يعرف اليأس البتَّة، فاستطاع أن يقضي على خصومه الواحد بعد الآخر، بالصبر والحزم والمثابرة، ولم يكن يُعير أيَّ انتباهٍ لمن كان يحاول أن ينال من عزيمته، فقد كان إيمانه بالله، وثقته به أكبر من أن يفسدها بعض مشاكل الدنيا، فاستحقَّ عن جدارة لقب المؤسس الثاني للدولة الأموية بعد معاوية مؤسسها الأول[2].

خامساً: النظام الإداري في خلافة عبد الملك:

اهتمَّ عبد الملك اهتماماً خاصاً بإدارة شؤون الدولة، وسار على منهاج معاوية في تطوير المؤسسات والاهتمام بالإصلاحات، فقد قام بتعريب الإدارة والنقد، وهو ما يعرف بحركة التعريب التي تنسب إليه، لقد نذر عبد الملك كلَّ وقته وجهده لتوطيد أركان الدولة وتنظيمها، حتَّى تركها قويَّةً مهيبة الجانب والسلطان[3].

فقد حققت حركة تعريب الدواوين التي قام بها عبد الملك نتائج ذات آثارٍ عظيمة في جميع الميادين السياسية والإدارية والثقافية ومن ذلك ما يلي:

١- ظهور حركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى العربية؛ حيث كانت حركة تعريب الدواوين أول عملية ترجمة منظّمة أدَّت إلى نقل الكثير من

١- عبد الله بن الزبير، للخراشي، ص (١٩٩).

٢- العالم الإسلامي في العصر الأموي.

٣- العالم الإسلامي في العصر الأموي، (١٥٣).

المصطلحات الأجنبية، وظهر من اهتمَّ بالترجمة، مثل خالد بن يزيد بن معاوية ابن أبي سفيان، المتوفى ٨٥هـ؛ فهو أول من أمر بنقل بعض كتب الكيمياء والطب من اليونانية إلى العربية [١].

٢- كان تعريب الدواوين سبيلاً لتعريب الأقاليم والجاليات غير العربية، فكان هذا من أكبر العوامل في انتشار اللغة العربية [٢]، كما أنَّ أجزاء كثيرة من العالم الإسلامي ما زالت إلى وقتنا الحاضر عربيةً ثمرةً لجهود عبد الملك[٣].

٣- إنَّ نظام عبد الملك نظامٌ إداري موحد وشامل، والدليل الأبرز على حسن هذا النظام أن عمل به العباسيون مع قليلٍ من الإضافات [٤].

سادساً: مواقف من تعامله مع الرعية:

١- المشورة:

كان عبد الملك يعتمد على المشورة في إنجاز مهام الدولة، فهو القائل:

«المشورة تفتح مغاليق الأمور»[٥].

٢- تسامحه مع أهل الكتاب:

كان عصر عبد الملك عصر تسامحٍ مع أهل الذمة، فقد سمح لهم بممارسة طقوسهم الدينية بحريَّة، وبناء الكنائس والأديرة[٦].

١- الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، (١٧٩).

٢- عبد الملك بن مروان، للريس، ص (٢٨٦).

٣- التاريخ السياسي، عبد المنعم ماجد (١٦٢/٢).

٤- الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، (١٨٠).

٥- الفخري في الآداب السلطانية، ص (١٢٦).

٦- الدعوة إلى الإسلام، توماس أرنولد، ص (٨٥).

٣- احذر في كلامك ثلاثاً:

دخل مرَّة أحد الرعية على عبد الملك، فقال له عبد الملك: «احذر في كلامك معيَ ثلاثاً، إيَّاك أن تخدعني، أو تكذبني فإنَّه لا رأي لكذوب، أو تسعى إليَّ بأحدٍ من الرعية فإنهم إلى عدلي وعفوي أقرب إلى جوري وظلمي»[١].

سابعاً: الحرف والصناعات والنقود:

١- صناعة النسيج:

لقد تطورت صناعة النسيج في الدولة الأموية كثيراً وأصبحت لها مصانع خاصةٌ بها سميت دور الطراز.

٢- صناعة مستلزمات البناء:

شهدت الدولة الأموية اهتماماً بالعمران، وتشييد المساكن، وزخرفتها، وقد أدَّى الإقبال على تزيين البيوت، والتأنق فيها إلى ظهور صناعاتٍ تلبي تلك الرغبات، فظهرت على سبيل المثال صناعة قطع الرخام والزخارف[٢].

٣- الصناعات الحربية:

توسعت هذه الصناعة في عهد عبد الملك، ففُتح دارٌ لصناعة السفن الحربية بتونس وكان عدد عمالها ألف عاملٍ متخصص، تمَّ نقلهم من دار الصناعة بمصر[٣]. وقد قام والي تونس بتوسيع دار الصناعة؛ فشقَّ قناةً بين الميناء وبين المدينة بطول اثني عشر ميلاً، فشكلت هذه القناة ما يماثل اليوم أحواض بناء السفن[٤].

١- البداية والنهاية، (٣٨٧/١٢).

٢- تاريخ الموصل (٢٢٣/١).

٣- تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، ص (١١٥، ١١٦).

٤- التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص (٢٤٠).

٤- صناعة البردي:

كان لهذه الصناعة أهميتها الخاصة؛ ذلك لأن البردي كان يستخدم قبل ظهور صناعة الورق آنذاك في المكتبات وأعمال الدولة، وكانت الدولة تشرف على الإنتاج إشرافاً مباشراً، وكانت صادرات البردي تدرُّ أرباحاً جيدة[١].

٥- إحداث دور ضرب العملة وتعريب النقد:

حرص عبد الملك على إنهاء التبعيَّة الاقتصادية للدولة البيزنطية التي كانت تسيطر دنانيرها الذهبية على الجانب النقدي من اقتصاديات الدولة، إضافةً إلى حاجة الدولة الفعلية إلى عملةٍ داخلية موحدة ومنضبطة تسهل القيام بالوظائف الاقتصادية في المجتمع[٢].

بل لقد تشدد عبد الملك وخلفاؤه من بعده في تعقب أية محاولةٍ للغش في النقود وتزيفيها؛ فقد روي أنَّ رجلاً أخذ يضرب على غير سكة المسلمين، فأراد عبد الملك قطع يده، ثم ترك ذلك واكتفى بعقابه [٣].

ثامناً: عبد الملك والشعراء:

امتاز عهد عبد الملك بثلاثة شعراء؛ هم الأخطل، جرير، والفرزدق.

١- **الأخطل:** هو غياث بن غوث التغلبي، ويكنى أبو مالك، ولد عام ١٩ هـ، الموافق عام ٦٤٠م، وهو شاعر عربي ينتمي إلى بني تغلب بن وائل بن ربيعه، وكان نصرانياً، وقد مدح خلفاء بني أمية بدمشق، وأكثر في مدحهم، حتى جعله عبد الملك بن مروان شاعر البلاط الرسمي، يدافع عن دولة بني أمية ويهاجم خصومها. أحسن ما قال من الشعر قوله:

١- المصدر السابق نفسه، ص (٢٤٣).

٢- المصدر السابق نفسه، ص (١٤٥).

٣- الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٤٤١).

والنـــاس همُّهـمُ الحيـاةُ ولا أرى طـول الحيـاة يزيـد غـير خَبـالِ
وإذا فقـرتَ إلى الـذخائر لم تجـدِ ذُخراً يكـون كـصالحِ الأعمـالِ[1]

٢- الفـرزدق: هـو همـام بـن غالـب التميمـي وكنيتـه أبـو فـراس (٣٨-١١٠هـ). ولد في البصرة، وهو شاعر من النبلاء، وله عظيم الأثـر في اللغـة. لقبـه الفرزدق ومعناها الرغيف، لقّب بذلك لجهامـة كانـت في وجهـه إذ كـان وجهـه كالرغيف المحروق. قيل له مـرَّة مـن أشـعر النـاس؟ قـال كفـاك بـي إذا افتخـرت، وبجريرٍ إذا هجا، وبابن النصرانية إذا امتدح[2].

٣- جرير: جرير: (- /١١٠هـ) شاعر ينتمي إلى قبيلة كليب من بني تميم، وهي قبيلة متحضرة في نجد. ولـد في خلافـة عثمـان بـن عفـان، اشـتهر في المـدح والهجاء، وتوفي بعد موت الفرزدق بشهور سنة ١١٠هـ. كان من فحـول شـعراء الإسلام، وكانت بينه وبين الشاعر الفرزدق صولات وجولات، ولكنه رثـاه بعـد مماته. كان في شعره عفةٌ ودين، وحسن خلـق، ورقـة طبـع، ففـي كـل بـاب مـن أبواب الشعر له أبياتٌ رائعةٌ، منها:

أ- إنَّ أغزل شعرٍ قالته العرب هو قوله:

إنَّ العيـون الـتي في طرفهـا حـورٌ قتلننـــا ثـــمَّ لم يُحـــيينَ قتلانـــا
يصرعن ذا اللُّبِّ حتى لا حـراك بـه وهـنَّ أضـعف خلـقِ الله إنـسانا

ب- أصدق بيتٍ قوله:

إنـي لأرجـو منـك خـيراً عـاجلاً والـنَّفس مولعـةٌ بحـبِّ العاجـلِ

١- سير أعلام النبلاء (٤/٥٩٠).
٢- المصدر السابق، (٤/٥٨٩).

تاسعاً: وفاة عبد الملك:

كان عبد الملك يقول: ولدت في رمضان، وفطمت في رمضان، وختمت القرآن في رمضان، وأتتني الخلافة في رمضان، وأخشى أن أموت في رمضان، فما إن دخل شوال حتى توفي رحمه الله، فكانت وفاته سنة ٨٦هـ[١]. وكان نقش خاتمه: آمنت بالله مخلصاً[٢].

١- أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، (٢٢/٢).

٢- تاريخ القضاعي، ص (٣٤٧).

(٦) الوليد بن عبد الملك
(٨٦-٩٦هـ)، (٧٠٥-٧١٥م)

أولاً: اسمه ونسبه:

هو أبو العباس الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي، الدمشقي، بويع بعهدٍ من أبيه، أنشأ جامع بني أمية، وزاد في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وزخرفه، ورزق في دولته السعادة، ففتح بوابة الأندلس، وبلاد الترك[١].

ثانياً: أهم أعماله الحضارية والإنسانية:

١- توسيع المسجد النبوي:

كان الوليد بن عبد الملك من أشهر خلفاء بني أمية، وهو أكثرهم عنايةً بالبناء والعمران، حتَّى لقب مهندس بني أمية، وأراد الوليد أن يبني المسجد النبوي ويشيده بما يليق به وبعظمة الخلافة في عهده، فصمم على تنفيذ مشروعه حتَّى غدا المسجد النبوي بأعظم حلَّة[٢].

٢- بناء المسجد الأموي:

قال ابن كثير في حوادث عام ٩٦هـ: فيها تكامل بناء الجامع الأموي بدمشق على يد بانيه أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك، جزاه الله عن المسلمين خير الجزاء، وكان أصل موضع هذا الجامع قديماً كنيسةً للنصارى، فعندما عزم الوليد على تحويلها إلى مسجد، قام بمفاوضة النصارى، وإرضائهم بعروضٍ مغرية[٣].

١- سير أعلام النبلاء (٣٤٨/٤، ٣٤٩).

٢- الشامل في تاريخ المدينة، (٣٩٦/١).

٣- البداية والنهاية، (٥٦٦/١٢، ٥٦٧).

ولقد استعمل الوليد في بناء هذا المسجد خلقاً كثيراً من الصناع والمهندسين وكان المشرف على عمارته أخوه، وولي عهده سليمان بن عبد الملك[1].

وفي أثناء ذلك نُقل إلى الوليد بأنَّ الناس يقولون: أنفقَ الوليد أموال بيت المال في غير حقها، فنودي في الناس: الصلاة جامعة، فاجتمع النَّاس، فصَعِد الوليد المنبر وقال: إنَّه بلغني عنكم أنَّكم قلتم: أنفقَ الوليد بيوت الأموال في غير حقها... ثمَّ نادى يا عمر بن مهاجر، قم فأحضر أموال بيت المال، فحُملت على البغال إلى الجامع، وبسط الذهب والفضة تحت القبة، حتى صارت أكواماً، فكان الرجل لا يرى الرجل من الجانب الآخر، فوزنت الأموال، فإذا هي تكفي الناس ثلاث سنين مستقبلة، ففرح الناس وكبروا وحمدوا الله عز وجل على ذلك[2].

افتخري يا شام

خلال تلك الحادثة قال الوليد: يا أهل دمشق! إنكم تفخرون على الناس بأربع: هوائكم ومائكم، وفاكهتكم، وحماماتكم، فأحببت أن أزيدكم خامسة وهي هذا الجامع، فاحمدوا الله تعالى، وانصرفوا شاكرين داعين[3].

> كان الجامع الأموي لما كمل بناؤه لم يكن على وجه الأرض بناء أحسن منه، ولا أبهى ولا أجل منه، بحيث إنه إذا نظر الناظر إليه، أو إلى أي جهةٍ منه، تحير فيما ينظر إليه لحسنه وجماله، ولا يمل ناظره، بل كلما أمعن النظر، بانت له أعجوبةٌ ليست كالأخرى[*].

١- المصدر السابق، (٥٧٠/١٢).

٢- المصدر السابق (٥٧٦/١٢).

٣- المصدر السابق.

*- المصدر السابق (٥٧٩/١٢).

٣- المستشفيات:

كان الوليد أول من أسس مستشفى خاصاً بالأمراض النفسية، وذلك سنة ٨٨هـ، وجعل فيه أطباء مهرة، وأجرى عليهم الأرزاق[١].

قال تقي الدين المقريزي: أول من بنى البيمارستان في الإسلام ودار المرضى الوليد بن عبد الملك، وهو أيضاً أول من عمل دار الضيافة، وذلك سنة ٨٨هـ، وجعل في البيمارستان أطباء، وأجرى لهم الأرزاق[٢].

٤- كفالة الدولة للمحتاجين:

كان الوليد يخصص الأرزاق للفقهاء والفقراء ويحرم عليهم سؤال الناس، ويفرض لهم ما يكفيهم[٣]. وأعطى كلَّ مُقعدٍ خادماً وكلَّ ضريرٍ قائداً، وأعطاهم من بيت المال ليقيهم سؤال الناس[٤].

ثالثاً: الحجاج بن يوسف الثقفي:

إنَّ سيرة الحجاج كبيرةٌ عظيمة، لا نستطيع أن نوجزها ببعض الأسطر؛ فقد شهدت ولايته للعراق فتوحاتٍ واسعة، وانتصاراتٍ مذهلة، فكان دخول أهل تلك البلاد في الإسلام مسجَّلاً في صحفته بإذن الله وفضله، إلا أنَّ كثيراً من المؤرخين عدَّوه من الولاة الباطشين الظالمين.

لذلك أحببت أن أورد شهادةً للحسن البصري فيه، وقد عاصر البصري زمن الحجاج بكل ألوانه، وكان لا يجلس مَجلساً إلا ذُكر فيه الحجاج فيدعو

١- المستشفيات الإسلامية من العصر النبوي إلى العصر العثماني، ص (٨٠)؛ الأمويون وآثارهم المعمارية، ص (٩٧).

٢- المصدر السابق، ص (٨٨).

٣- العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (١٥٨).

٤- البداية والنهاية (٦٠٩/١٢).

عليه، يقول البصري: رأيته في المنام، فقلت له: ماذا فعل الله بك ؟ قال: قتلتُ بكل قتيلٍ قتلته، ثم عُزلت مع الموحدين. يُكمل البصري قوله: فأمسكت بعد ذلك عن شتمه[1].

رابعاً: وفاة الوليد:

كانت وفاة الوليد يوم السبت في النصف من جمادى الآخرة سنة ستٍ وتسعين في قول جميع أهل السير[2]. وكان نقش خاتمه: يا وليد إنك ميت[3].

١- البداية والنهاية (١٢/٥٥٤).

٢- تاريخ الطبري (٧/٣٩٦).

٣- تاريخ دمشق (٦٦/١٢٩).

(٦) سليمان بن عبد الملك
(٩٦-٩٩هـ)، (٧١٥-٧١٨م)

أولاً: اسمه وشيء من صفاته:

هو سليمان بن عبد الملك، أبو أيوب القرشي الأموي، بويع بعد أخيه الوليد سنة ستٍ وتسعين، وكان ديِّناً فصيحاً عادلاً محباً للغزو، وكان يستعين في أمر الرعية بعمر بن عبد العزيز، عزل عُمَّال الحجاج، وكتب: إنَّ الصلاة قد أُميتت فأحيوها بوقتها. وعن ابن سيرين قال: رحم الله سليمان افتتح خلافته بإحياء الصلاة، واختتمها باستخلاف عمر[١].

ثانياً: الشورى، وبعض علماء عصره:

اتسم عهد سليمان بهدوءٍ نسبي إلى درجةٍ كبيرة، فلم يشهد حركاتٍ معارضة عنيفة فكانت حركات الخوارج بسيطة الأثر لم تهدد كيان الدولة وأمنها، ووادع سليمان الهاشميين والزبيريين وأحسن إليهم[٢]

وسبب ذلك الهدوء أن جعل سليمان من الشورى أحد دعائم حكمه، وصفةً لنهجه الجديد؛ حيث قال للناس يوم بيعته: وقد عزلت كل أميرٍ كرهته رعيته، وليت على أهل كل بلدٍ، من أجمع عليه خيارهم، واتفقت عليه كلمتهم[*].

١- سير أعلام النبلاء، (٥/١١١، ١١٢).، (٧/١١٢).

٢- خلافة سليمان بن عبد الملك، ص (١٣٨).

*- المنتظم (٧/١٤، ١٥).

ومن أجلِ العلماء في عهده رجاء بن حيوة:

هو أبو نصر الكندي الإمام القدوة الوزير العادل الفقيه، وهو من جلة التابعين[1]، بدأ اتصاله بالأمويين منذ عهد عبد الملك، وقد بلغت مشاركة رجاء وتأثيره السياسي في عهد سليمان بن عبد الملك الذروة؛ حيث اتخذه سليمان وزير صدقٍ له يستشيره في كثير من الأمور والقضايا المتعلقة بسياسة الدولة وإدارتها[2]. على أنَّ أكبر تأثيرٍ سياسي لرجاء في عهد سليمان يظهر في إشارته عليه باستخلاف عمر بن عبد العزيز من بعده[3].

فقد كان لموقفِ رجاء في استخلاف عمر أثرٌ سياسي كبير غيَّر مجرى التاريخ الأموي بصفةٍ خاصة، والإسلامي بصفةٍ عامة، وظل رجاء في عهد عمر يتبوأ المكانة والرفعة ذاتها، فلما وليَ من بعده يزيد بن عبد الملك، اعتزل رجاء مجالس الخلفاء[4].

ثالثاً: ولاية العهد ووفاة سليمان:

لما مرض سليمان مرض الموت، استشار رجاء فقال: من لهذا الأمر من بعدي؟ فقال رجاء أرى أن تستخلف عمر بن عبد العزيز، قال: أتخوف من بني عبد الملك ألا يرضوا قال: فولي عمر ومن بعده يزيد بن عبد الملك، وتكتب كتاباً وتختم عليه وتدعوهم إلى البيعة، قال: لقد رأيت، ائتني بقرطاس فكتب بذلك... ثمَّ خرج رجاء فجمع الناس، وقال: إنَّ أمير المؤمنين يأمركم أن تبايعوا لمن في هذا الكتاب من بعده، قالوا: ومن فيه ؟، قال مختوم، فبايَعوا على ذلك.

١- سير أعلام النبلاء (٤/٥٥٧).

٢- أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص (١٤٦).

٣- المصدر السابق، ص (١٤٧).

٤- المصدر السابق، ص (١٥٦).

قال رجاء: فلما خرجت إلى منزلي، فبينما أنا أسير في الطريق، التقيت بهشام، فقال لي: يا رجاء قد علمت موقعك منَّا، وإنَّ سليمان قد صنع أمراً لا أدري ما هو، وأنا أتخوف أن يكون قد أزالها عني؛ فأخبرني عَلِّي أحدِّثه بهذا. فامتنع رجاء عنه ومضى في طريقه... ثمَّ أقبل عليَّ عمر وقال: يا رجاء إني أتخوف أن يكون قد جعلها إليَّ، فأعلمني عَلِّي أصرفها عن نفسي قبل وفاته[1].

فلما توفي سليمان اجتمع الناس وأعادوا البيعة على كتاب سليمان، ثمَّ فتح رجاء الكتاب فإذا فيه العهد لعمر بن عبد العزيز، فتغيرت وجوه بنو عبد الملك، ونادى هشام: لا نبايعه أبداً. فقال رجاء: أضرب والله عنقك، قم وبايع، فقام يجر رجليه[2] فلما سمعوا من بعده يزيد بن عبد الملك تراجعوا عن إعراضهم[3].

وهكذا فقد توفي سليمان وعمره ٣٩ سنة على الأرجح وصلى عليه عمر، وكان نقش خاتمه آمنت بالله مخلصاً[4].

١- المصدر السابق، ص (١٥٢).

٢- المصدر السابق، ص (١٥٣).

٣- سير أعلام النبلاء (٥/١٢٤، ١٢٦).

٤- تاريخ القضاعي، ص (٣٥٩).

الفتوحات الإسلاميَّة

سنذكر في هذا البحث أخبار الفتوحات في عهد كل من عبد الملك والوليد وسليمان؛ لكي نعطي صورةً متكاملةً عنها بسبب ترابطها ببعضها.

١- الفتوحات على الجبهة الشماليَّة:

في أواخر عام ٧٣هـ، شعر عبد الملك أنَّ الدولة استعادت قوَّتها، وأنها تستطيع أن تستأنف جهادها وتعلي إرادتها، وكانت العلاقة بين الروم والمسلمين قد ازدادت سوءاً في هذه الفترة؛ فكان الروم يتأهبون لغزو بلاد الإسلام إلا أنَّ عبد الملك كان لهم بالمرصاد؛ حيث أعاد تنظيم غزوات الصوائف والشواتي وأغار على عددٍ من حصون الروم[١].

أ- سليمان بن عبد الملك وحصار القسطنطينية:

استمرت المعارك بين المسلمين والروم، إلى أن جاء سليمان فعزم على حصار القسطنطينية فجمع رجاله، واستشارهم، فاختلفوا على رأيين حول سير الجيوش:

الأول: طرحه موسى بن نصير، وفحواه: أنَّ على المسلمين احتلال المدن والحصون التي دون القسطنطينية، لتجريدها من المواقع الحصينة المحيطة بها، ويستمر الفتح حتى الوصول إليها. وأما الثاني: فطرحه مسلمة بن عبد الملك، والذي ارتأى أنَّ اتباع خطة موسى تحتاج إلى أمد بعيد جداً حتى يتحقق الفتح، لذلك أشار بضرورة التوجه مباشرةً إلى القسطنطينية وحصارها حتى يتم الفتح. ويبدو أنَّ رأي مسلمة لقي قبولاً من مجلس شورى الخليفة فسارت الحملة حسب خطته[٢].

١- عبد الملك بن مروان، محمد ضياء الدين الريس، ص (٢٠٨).

٢- البداية والنهاية (٦٣٢/١٢).

إلا أنَّ الحملة أخفقت في الوصول إلى هدفها بعد حصارٍ طويل الأمد؛ حيث تأكد للمسلمين أنَّ فتح القسطنطينية لا يتم إلا بخطة موسى، وذلك لمنع الإمدادات عن المدينة، وحماية الجيش الإسلامي من غارات المدن المجاورة لها.

ب- مسلمة بن عبد الملك أشهر قادة المسلمين ضدَّ الروم:

هو مسلمة بن عبد الملك الأمير الضرغام، له مواقف مشهودةٌ مع الروم، وهو الذي غزا القسطنطينية، وكان قد وليَ العراق لأخيه يزيد ثمَّ أرمينية[1].

كانت تجاربه العملية غنيَّةً إلى أبعد الحدود، فقد شهد كيف تدار الدولة على أعلى المستويات مع أبيه عبد الملك، ثمَّ مع إخوته من بعده، وكان الخلفاء من إخوته يحرصون على أن يبقى إلى جانبهم مستشاراً يتعلمون منه، فإذا شعروا بأمر خطيرٍ في دولتهم أرسلوه ليقضي عليه ويعيد الأمور إلى طبيعتها[2].

كان مسلمة بحق أكثر الناس حرصاً على رص الصفوف ووحدة الأمة، كما أنه كان يعد الخلافة وسيلةً من أجل خدمة الأمة لا غاية من أجل أطماع شخصية، وهو بحق خدم الأمة أجل الخدمات، وبذلك حقق الغاية، واستغنى عن الوسيلة[*].

كان مسلمة مخلصاً غاية الإخلاص لبني أمية، ويدين بالولاء المطلق لهم، ولم يكن يطمح لتولي الخلافة؛ لأن بني أمية لم يكونوا يباعون لبني أمهات الأولاد[3].

توفي مسلمة سنة ١٢٠هـ، وكان جميل الوجه، حسن الصورة[4].

١- سير أعلام النبلاء (٥/٢٤١).

٢- قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، ص (٣٠٥).

*- المصدر السابق ص (٣١١).

٣- المصدر السابق، ص (٣١٠).

٤- سير أعلام النبلاء (٥/٢٤١).

٢- الفتوحات في الشمال الإفريقي والأندلس:

أ- حسان بن النعمان الغساني[١]:

كان عبد الملك رجلَ عصره يجهز الجيوش على الاتجاهات كافة أملاً بنشر الإسلام، وإعلاء كلمة لا إله إلا الله بالحِوار والدعوة الحضارية. فمن الجيوش التي جهزها جيش حسان بن النعمان، حيث وجَّهه إلى مصر موصياً إياه: إني قد أطلقت يدك في أموال مصر، فأعط من معك ومن ورد عليك من الناس، واخرج بهم إلى جهاد إفريقية على بركة الله [٢].

وقد وصف ابن الأثير عظمة جيش حسان من حيث تعداده وعدته بقوله: لم يدخل إفريقية جيشٌ مثله، وكان بداية الغزو في عام ٧٤هـ [٣].

اهتمامه بالتنظيم الإداري:

أنشأ حسان في إفريقية مدينةً إسلاميةً ثانية وهي تونس؛ التي أصبحت رباطاً يحمي القيروان ومحرساً للبحر وميناء جديداً للبلاد، وصارت تونس ثانية عواصم إفريقية بعد القيروان التي ابتناها عقبة بن نافع زمن معاوية[٤].

ولقد اهتمَّ حسان بتعليم البربر مبادئ الإسلام، وترك معهم ثلاثة عشر رجلاً من علماء التابعين يعلمونهم القرآن الكريم وشرائع الدين، وبثَّ الدعاة في مختلف القبائل لنشر الإسلام فبنوا المساجد، واستلموا المنابر، وانتشرت الكتاتيب لتعليم الأولاد مبادئ القراءة والكتابة[٥].

١- ولد حسان بن النعمان بالشام، وأسلم عند الفتح الإسلامي للشام مع أهله، حفظ القرآن والسنة النبوية وأتقن العلوم الفقهية، وكانت وفاته سنة ٨٦ هـ..

٢- نهاية الأرب في فنون الأدب (٣٤/٢٤).

٣- الكامل في التاريخ (٨٢/٣).

٤- رياض النفوس (٣٧/١)، الإسلام والتعريب (١٦٢/١).

٥- البيان المغرب (٤٣/١)، الإسلام والتعريب (١٦٢/٢، ٣١١).

ب- موسى بن نصير[1]:

من أشهر قادة الفتح في إفريقيا تولى أمرها بعد حسان فاستطاع بعد حملاتٍ جهادية منظمة أن يسيطر على جميع الشمال الإفريقي من برقة حتى المحيط الأطلسي وأصبح بلا منازع سيد إفريقية[2]. هذا وقد تُوجت هذه الانتصارات البحرية والبرية الرائعة بالتوجه نحو الأندلس وفق المخطط الذي وضعه موسى بن نصير ونفذه طارق بن زياد[3].

العبور:

أرسل موسى طارقاً في سبعة آلاف جنديٍّ من المسلمين أكثرهم من البربر والموالي، وأقلهم من العرب، ونزل طارق بالجند عند جبل كالبي، وهو الجبل الذي أخذ اسم طارق وصار يعرف باسم جبل طارق[4].

الخطبة المنسوبة إلى طارق وحرق السفن:

يعتقد كثيرٌ من المؤرخين أنَّ طارقاً أحرق سفنه، بعد أن أنزل جيشه على الساحل الأندلسي، ثمَّ خطب بهم الخطبة الشهيرة: أيها الناس، أين المفر ؟! البحر من ورائكم، والعدو من أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر...[5].

١- أبو عبد الرحمن موسى بن نصير (٦٤٠-٧١٦ م/١٩ هـ-٩٧ هـ) نشأ في دمشق وأصله من اليمن.

٢- مصر في العصر الأموي، ص (١٦١).

٣- المصدر السابق، ص (١٦٢). طارق بن زياد: ولد عام ٥٠هـ في خنشلة في الجزائر، أسلم على يد موسى بن نُصَير أمير أفريقيا، فكان من أشد رجاله قوةً وحكمة. قاد أول الجيوش الإسلامية التي دخلت شبه جزيرة أيبيريا، ويعتبر طارق بن زياد من أشهر القادة العسكريين في التاريخ، توفي في سنة ٧٢٠م.

٤- دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٢٩٩) .

٥- وفيات الأعيان (٣٢١/٥، ٣٢٢).

فكيف يمكن للعاقل المنصف أن يصدق هذه الرواية، فلماذا يحرق طارق السفن، فإن كانت السفن للروم فليس من حقه أن يحرقها فهي غنائم للمسلمين، وإن كانت للمسلمين فليس حرقُها عملاً عسكرياً سليماً، ما دام يحتاج إليها وإلى النجدة في أي وقتٍ ممكن، كما أنَّ طارقاً كان قادراً على إعادتها إلى الساحل الإفريقي[1]. وإنَّ المصادر الأندلسية لا تشير إلى قصة إحراق السفن البتّة[2].

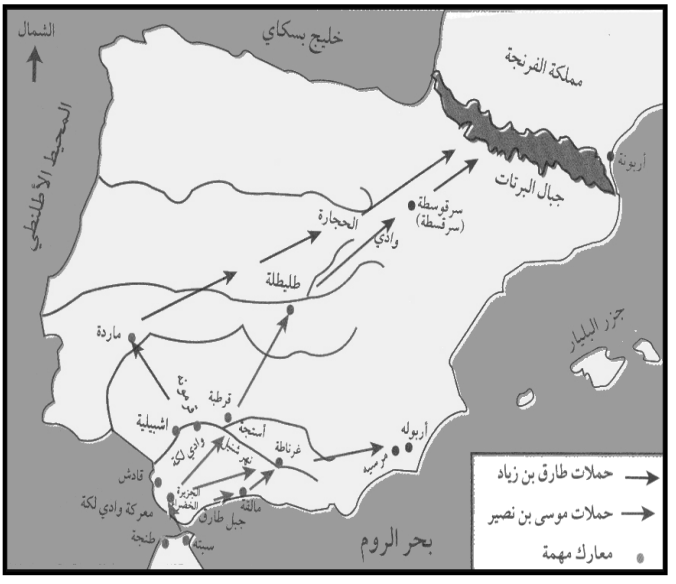

مصير كل من موسى بن نصير وطارق بن زياد:

بعد كلِّ تلك الغزوات المشرقة التي جعلت من جنوب فرنسا حدوداً للدولة الإسلامية قام الوليد باستدعاء موسى إلى الشام، وأعاد الكثير من المؤرخين أنَّ سبب ذلك هو خوف الوليد على المسلمين أن يكونوا في أرضٍ منقطعة[3].

١- التاريخ الأندلسي، ص (٦٢).

٢- المصدر السابق.

٣- دولة الإسلام في الأندلس (١/٥٤)، التاريخ الأندلسي، ص (١١٣).

ويؤكد كثيرٌ من المؤرخين أنَّه لو قُدِّر لموسى بن نصير أن يمضي قدماً في غزواته لتغير شكل النظام الدولي تماماً، ولدخلت أوربا برمتها تحت منارة الحضارة الإسلامية، بدلاً من عصور الظلام التي كانت فيها.

سأل يزيد بن المهلب موسى بن نصير عن عدم انفصاله عن الدولة الأمويـة، وقد دخل تحت إمارته ما دخل من مسافاتٍ واسعة، فقال له موسـى والله لـو أردت ذلك ما نالوا من أطرافي طرفاً، ولكني آثرت الله ورسـوله، ورفـضت الخروج عن الطاعة والجماعة[*].

كانت وفاة موسى بن نصير رحمه الله وهو متجهٌ إلى الحج برفقة سليمان بن عبد الملك وذلك أواخر سنة ٩٧هـ، وعمره ٧٨ عاماً[١].

أمَّا البطل طارق بن زياد، فلا نكاد نعرف شيئاً مما حدث له بعد وصوله دمشق مع موسى، غير أنَّ روايةً تذكر أن سليمان أعاد إرساله إلى بلاده فقد كان من البربر الذين حسُن إسلامهم وخدموا دين الله[٢]، فرحمة الله عليه.

٣- الفتوحات على الجبهة الشرقية:

من أشهر قوَّاد الفتح في المشرق المهلب بن أبي صفرة[٣]، وابنه، وقتيبة بن مسلم الباهلي[٤]، .....

---

*- الشرف والتسامي، ص (٢٧٩).

١- تاريخ علماء الأندلس (١٤٦/٢).

٢- فاتح الأندلس طارق بن زياد، ص (٤٥، ٤٦).

٣- المهلّب بن أبي صفرة الأزدي: من أهم ولاة الأمويين على خراسان. عينه الحجاج عاملاً على خراسان عام (٧٨هـ- ٦٩٧م) فقام بفتوح واسعة فيما وراء بلاد النهر.

٤- قتيبة بن مسلم الباهلي: قائد إسلامي شهير قاد الفتوحات الإسلامية في بلاد آسيا الوسطى في القرن الأول الهجري. ولد في بيت إمارةٍ وقيادة سنة ٤٩ هـ، بأرض العراق، قتل سنة ٩٦ هـ، وعمره ٤٨سنة.

ومحمد بن القاسم الثقفي[1] وهم جميعاً ولاةٌ للحجاج فكان المسؤول عنهم وعن فتوحاتهم، وعلى الجملة فإن هذه الفتوحات أثمرت خيراً كثيراً، فمن أشهر الأقاليم التي افتتحها المسلمون في تلك البقاع في هذا العصر سمرقند، وبخارى، والسند، والهند[2]، لتنتهي حدود الدولة الإسلامية عند بلاد الصين.

تذكر كتب التاريخ أن قتيبة بن مسلم حط بجيوشه على حدود الصين، وبعث رسلاً لملك الصين فاستقبله الملك وقال: قولوا لقتيبة ينصرف، فإني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه، وإلا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه.
فرد عليه الرسول بكل حزمٍ وإيمان: كيف يكون قليلُ الأصحاب من أول خيله في بلادك، وآخره في منابت الزيتون؟! وأما تخويفك إيانا فإن لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتال، فلسنا نكرهه ولا نخافه.
أعادت هذه الكلمات ملك الصين إلى صوابه، وأيقن أنه أمام قوةٍ لا يجدي معها التحديد، فقال للرسول فما الذي يرضِي صاحبكم: قال إنه قد حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم، ويعطى الجزية، قال فإنّا نُخرجه من يمينه، نبعث إليه بترابٍ من ترابٍ أرضنا فيطؤه، ونبعث إليه بجزيةٍ يرضاها؛ فقبل قتيبة عرض الملك، وتم الصلح، وأرغمت الصين على دفع الجزية للمسلمين[*].

١- محمد بن القاسم الثقفي: ولد سنة ٧٢هـ بمدينة الطائف.

٢- سمرقند: تقع في آسيا الوسطى، ومعنى اسمها «قلعة الأرض»، وقد وصفها ابن بطوطة بقوله: «إنها من أكبر المدن وأحسنها وأتمها جمالاً، مبنية على شاطئ وادٍ يعرف بوادي القصّارين، وكانت تضم قصورًا عظيمة، وعمارة تُنْبِئ عن هِمَم أهلها». بخارى: عاصمة ولاية بخارى في أوزبكستان وتعد خامس أكبر مدن أوزباكستان. وقد صنفت اليونسكو هذه المدينة القديمة بما فيها من المساجد والمدارس الإسلامية وهندستها المعمارية القديمة كأحد مواقع التراث العالمي. خْوارِزْم: هو الاسم القديم لمدينة (خيوة) التي كانت تابعة لإقليم خراسان الإسلامي وتقع اليوم في غرب أوزبكستان. ولد بها- على بعض الروايات- الخوارزمي عام ٧٨٠ م.

*- تاريخ الطبري (٤٠٤/٧) بتصريفٍ طويل.

(٨) عمر بن عبد العزيز
(٩٩-١٠١هـ)، (٧١٨-٨٠١م)

أولاً: اسمه وأسرته وشيء من صفاته:

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أميَّة بن عبد شمس بن عبد مناف، الإمام العادل الحافظ الزاهد، أمير المؤمنين أشجُّ بني أميَّة[١].

١- والده:

هو عبد العزيز بن مروان، من خيار أمراء بني أمية، كان شجاعاً كريماً، بقي أميراً لمصر أكثر من عشرين سنة، زوجته أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وزواجه من آل الخطاب ما كان ليتمَّ لولا علمهم بحاله وحسن سيرته واهتمامه بالعلم والسنة[٢].

٢- أمه:

كان عمر بن الخطابﷺ يسير في الليل لتفقد الرعيَّة بالمدينة، فسمع مرَّةً امرأةً تقول لبنتها: يا بنتاه قومي إلى ذلك اللبن فزيديه ماءً، فقالت البنت: أو ما علمت أنَّ أمير المؤمنين منع أن يشاب اللبن بالماء، فقالت لها: قومي فافعلي ما أمرتك، فإنك بموضعٍ لا يراك فيه عمر، فقالت الصبية لأمها: والله ما كنت لأطيعه في الملأ وأعصيه في الخلاء، وعمر يسمع كل ذلك، فقال: لخادمه علِّم الباب واعرف الموضع، فلما أصبح دعا أولاده، فجمعهم، فقال هل فيكم من يحتاج إلى امرأةٍ فأزوجه... فقال

١- سير أعلام النبلاء (٥/١٤٤).

٢- عبد العزيز وسيرته وأثره، ص (٥٨).

عاصم: يا أبتِ لا زوجة لي فزوجني، فبعث إلى ذلك البيت فزوجه من الصبية، فولدت لعاصم بنتاً، وولدت البنت عمر بن عبد العزيز[١].

٣- أشجُّ بني أمية:

كان عمر رحمه الله يلقب بأشج بني أمية، وذلك أنَّ عمرَ عندما كان صغيراً دخل إلى إصطبل أبيه عندما كان والياً على مصر ليرى الخيل، فضربه فرسٌ في وجهه فشجَّه، فجعل أبوه يمسح الدم عنه ويقول: إن كنت أشج بني أمية إنك إذاً لسعيد[٢]. وذلك لأن عمر بن الخطاب ﷺ كان يقول: إن من ولدي رجلاً بوجهه أثرٌ يملأ الأرض عدلاً[٣]. فتحققت رُؤياه بحفيده عمر بن عبد العزيز.

٤- صفاته الخلقية:

كان رحمه الله أسمر رقيق الوجه أحسنه، نحيف الجسم حسن اللحية، غائر العينين بجبهته أثر نفحة دابة، وقد خطه الشيب[٤].

٥- مكانته العلميَّة:

اتفقت كلمة المترجمين له على أنه من أئمة زمانه، وقال فيه مجاهد: أتيناه نعلمه فما برحنا حتى تعلمنا منه[٥].

١- سيرة عمر، لابن الحكم، ص (١٩، ٢٠).

٢- البداية والنهاية؛ نقلاً عن فقه عمر بن عبد العزيز (٢٠/١).

٣- المعارف، لابن قتيبة، ص (٣٦٢).

٤- الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (٥٨/١).

٥- المصدر السابق (٦٧/١)، تهذيب التهذيب (٤٠٥/٧).

كان لعمر موقفٌ رائع مع سليمان أيام خلافته؛ إذ كانا واقفين يوم عرفـة فجعل سليمان يعجب من كثرة الناس، فقال له عمـر: «هـؤلاء رعيتـك اليوم، وخصماؤك يوم القيامة، فبكى سليمان، وقال: بالله أستعين»[*].

ثانياً: حرصه على مبدأ الشورى في بيعته:

صعد عمر المنبر، وقال في أول لقاءٍ مع الأمة بعد استخلافه: أيها النَّاس! إني قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأيٍ كان مني فيه، ولا مشورةٍ من المسلمين، وإني قد خلعتُ ما في أعناقكم من بيعتي، فاختاروا لأنفسكم. فصاح النَّاس صيحةً واحدة: قد اخترناك يا أمير المؤمنين، ورضينا بك، فلِ أمرنا باليُمن والبركة[1].

وبذلك خرج عمر من مبدأ التوريث الذي تبناه معظم خلفاء بني أمية إلى مبدأ الشورى والانتخاب، ولم يكتفِ عمر باختياره ومبايعة الحاضرين، بل أهمه رأي المسلمين في الأمصار الأخرى؛ فبعث إليهم يخيرهم بأمر خلافته؛ فبايعوه لما عرفوا من حُسن سيرته قبل الخلافة[2].

ثالثاً: سياسته في رد المظالم:

بدأ عمر بنفسه في رد المظالم والحقوق لأهلها ومُستحقيها، ثمَّ ثنَّى في ذلك بأهل بيته وبني عمومته من أفراد البيت الأموي، فجمعهم وطلب إليهم أن يُخرجوا مما بأيديهم من أموال وإقطاعاتٍ أخذوها بغير حق[3]. ولم تمضِ أيَّامٌ معدودات حتى وجد بنو أمية أنفسهم مجردين إلا من حقهم الطبيعي المشروع، فضاقوا ذرعاً من سياسة عمر وعارضوه معارضةً صارمة.

---

*- البداية والنهاية، (١٢/٦٨٥).

١- عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ماجدة فيصل، ص (١٠٢).

٢- النموذج الحضاري المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز، ص (٢٨٥).

٣- عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ماجدة فيصل، ص (٢١٥).

ولا ريب أنَّ سياسة عمر تهدد مكانة الأسرة الأموية وتضعف قوتها، وقد تؤدي إلى دفعها لاتخاذ مواقف مهددة للخليفة القائم، وفي هذا خطرٌ كبيرٌ عليه وعلى الخلافة [1].

وعندما عجز أفراد البيت الأموي عن إقناعه أرسلوا إليه عمتهم فاطمة بنت مروان، وكانت مسموعة الكلمة مطاعة الأمر عندهم، فذهبت إلى عمر وحدثته حديثاً طويلاً، إلا أنها لم تفلح في إقناعه بالرجوع عن قراره؛ فلما خرجت إليهم قالت لهم: أنتم فعلتم ذلك بأنفسكم، وتزوجتم بأولاد عمر بن الخطاب ﷺ فجاء يشبه جدَّه، فسكتوا[2].

ثمَّ سرعان ما تلاشت معارضتهم أمام حزم عمر في أمرهم.

حوادث التاريخ قيم المستقبل:

إنَّ عصر عمر بن عبد العزيز يحملُ قيماً جميلةً، تذهل العقول، فعمر بإيمانه ورقيِّه ترك لنا أساليب ووسائل حضاريَّةٍ ليتنا نتعلم منها، ونطبقها في كلِّ مجالات حياتنا، ويا للأسف الشديد، أنَّ كثيراً مما سنأتي على ذكره قد نسيه المسلمون، وأخذ الغرب بتنفيذه والعمل به وفقاً لأهدافهم ومجتمعاتهم، وإني أرجو من الله أن نعيد في مجتمعنا سيرة هذا الخليفة الأمويِّ المؤمن الحضاريِّ العظيم.

رابعاً: اهتمامه بأمر الرعية:

لقد أثرت شخصية عمر وسياسته العادلة تأثيراً بالغاً في الناس وفي رغباتهم؛ يدل على ذلك ما ذكره الطبري في تاريخه مقارناً عهد عمر بالعهود السابقة له: كان الوليد محباً للبناء والمصانع، فكان الناس يلتقون في زمانه ويناقشون أمور البناء

١- عمر بن عبد العزيز، صالح العلي، ص (١٩٥).

٢- الكامل في التاريخ (٣/٢٧١).

وزخرفة العمران، فلما ولي عمر كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل: كم تحفظ من القرآن؟ ومتى ختمت؟ وما تصوم من الشهر؟[1].

١- معاملته لأهل الذمة:

أنصف عمر أهل الذمة، وأمر أن لا يعتدى عليهم أو على معابدهم، وكتب إلى عماله: ألا تهدموا كنيسةً ولا بيعة، ولا بيت نارٍ صولحتم عليه [2].

إن الإسلام دين العدالة والسماحة والاهتمام بالضعيف، والإسلام يهتم بكل من يعيشُ على أرضه ولو كان على غير دين الإسلام، وعمـر يجسد هذه القيم الرفيعة بتطبيقه أحكام هذا الدين، فمما أقره أيضاً أن الذمي إذا كبر ولم يكن له مالٌ ولا حميم ينفق عليه فإن نفقته من بيت مال المسلمين[*].

٢- دفع المهور من بيت المال:

اهتمَّ عمر بأداء مهور الزواج من بيت مال المسلمين لمن لم يستطع توفيره[3]، وهذا قرارٌ مهمٌ في إصلاح المجتمع، لأن صلاحه يتوقف على تحصين أبنائه بالزواج وقد يكون المهر عائقاً لبعض الفقراء دون الزواج، ولا سيّما في حال غلاء المهور، فإذا أمَّنت الدولة ذلك لمن لا يستطيع تأمينَه؛ فإنها تُسهم في تكوين المجتمع الصالح وحفظه من أسباب الفساد[4].

١- التجديد في الفكر الإسلامي، ص (٨٧).

٢- تاريخ الطبري (٤٧٧/٧).

*- فقه عمر (٣٥٣/٢). الطبقات (٣٨٠/٥).

٣- طبقات ابن سعد (٣٧٤/٥).

٤- التاريخ الإسلامي (١٥، ١٣٩/١٦).

٣- الإنفاق على الفقراء:

خصص عمر داراً لإطعام الفقراء والمساكين وأبناء السبيل، و لم يكتفِ عمر بذلك بل امتدت رعايته إلى المرضى وذوي الاحتياجات والأيتام، وكتب بذلك إلى الولايات، فعم الأمن والرخاء الحضاري أرجاء الدولة[١].

٤- الإنفاق على المسافرين:

اهتم عمر بالمسافرين وأبناء السبيل؛ فأمر عماله ببناء بيوت الضيافة على الطرق لرعاية المسافرين والاهتمام بهم، وأمر بالاهتمام بالحجاج، والإنفاق عليهم ورعاية ضعيفهم وإمداده بالمال إذا عجز عن العودة إلى بلاده[٢].

٥- في أحكام السجناء:

أمر عمر بتعجيل النظر في أمور المتهمين، فمن كان عليه أدبٌ فيؤدب ويطلق سراحه، ومن لم يثبت عليه قضيةٌ يُخلى سبيله، وأمر بالاهتمام بأحوالهم، ونوعية طعامهم وكسوتهم[٣].

خامساً: جهود عمر والتابعين في خدمة السنة:

لعلَّ أول طلائع التدوين الرسمي للحديث النبوي، الذي قامت به جهة مسؤولةٌ في الدولة الإسلامية، كان على يد عبد العزيز بن مروان، بيد أنَّ التدوين الذي آتى ثماره هو ما قام به عمر بن عبد العزيز، وقد تجلَّى ذلك في إرشاداته لكتابة العلم وتدوين الحديث، وأوامره للخاصة والعامة بذلك.

١- سيرة ومناقب عمر، لابن الجوزي، ص (٢٠٢) ،الطبقات (٣٧٨/٥).

٢- سيرة عمر، لابن عبد الحكم، ص (٦٥).

٣- فقه عمر (٢٢٥/٢، ٢٢٦).

فقد وجَّه كتاباً بهذا الشأن إلى الإمام الحجة ابن شهاب الزهري[1] يأمره بجمع السنن فيكتبَها دفتراً دفتراً، وأن يُفعل ذات الأمر في كل الولايات[2].

واهتم عمر باللغة العربية: فشجع أهل البلاد المفتوحة على تعلمها وإتقانها، وكان يغدق عليهم لأجل ذلك العطايا، كما أنه يعاقب من يلحن بالعربية وينقص من عطائه، لما يعلَمُه من أهمية العربية في فهم القرآن والسنة النبوية الشريفة[3].

ويعتبر هذا التدوين الرسمي بحقّ أحد أهم الأعمال العظيمة التي تحققت في عهد عمر رحمه الله.

ومن أهم العلماء في عهده الحسن البصري:

اسمه ونسبه:

هو أبو سعيد الحسن بن يسار- مولى زيد بن ثابت ﷺ- من كبار التابعين، وإمام أهل البصرة وإليها ينسب، وحَبْرُ الأمة وقتها، يعد من المعاصرين لعمر، كما أنه كان له تأثيرٌ واضح في الحياة الدينية والاجتماعية في عهد الدولة الأموية.

قسوة القلب وموته وإحياؤه:

قال رجلٌ للحسن: يا أبا سعد، أشكو إليك قسوة قلبي، قال عليك بالذكر، وقال: «إن القلوب تموت وتحيا، فإذا ماتت فاحملوها على الفرائض، وإذا أُحييت فأتبعوها بالتطوع»[4].

١- هو أبو بكر محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزُهري من بني زُهرة بن كلاب، كبير المحديثين وإمامهم بلا منازع، تابعي من أهل المدينة، وأول من دوّن الحديث، كان يحفظ ألفين ومائتي حديث نصفها مسند، وروي عنه أنه كان يسير ومعه الألواح والصحف، ويكتب كل ما يسمع.

٢- جامع بيان العلم (١/٩١، ٩٢).

٣- عمر بن عبد العزيز، للشرقاوي، ص (١٧٨).

٤- الزهد، للحسن البصري، ص (١٢٣، ١٢٤).

كثرة ذكر الموت:

قيل: رأى الحسن شيخاً في جنازة فلما فرُغ من الدفن، قال له الحسن: يا شيخ، أسألك بربك: أتظن أن هذا الميت يود أن يردَّ إلى الدنيا فيتزيد من عمله الصالح ويستغفر الله من ذنوبه ؟ فقال الشيخ: اللهم نعم، فقال الحسن: فما بالنا لا نكون كهذا الميت، ثم انصرف وهو يقول: أي موعظةٍ! ما أنفعها لو بالقلوب حياة ولكن لا حياة لمن تنادي[1].

وقال مرة: «إياكم وما شغُل من الدنيا، فإن الدنيا كثيرة الاشتغال، ولا يفتح رجلٌ على نفسه باب شغلٍ، إلا أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب»[2].

ومن قوله أيضاً: «يا ابن آدم إنما أنت أيام، كلما ذهب يومٌ ذهب بعضك»[3].

من تلاميذ الحسن البصري:

- **مالك بن دينار:**

يذكر أنَّه دخل عليه لصٌ، فما وجد ما يأخذ، فناداه مالك: لم تجد شيئاً من الدنيا؛ أفترغب في شيءٍ من الآخرة ؟ قال: نعم، قال توضأ، وصلِّ ركعتين، ففعل ثم جلس وخرج إلى المسجد، فسئِل مالك: من هذا، فقال: جاء ليسرقنا فسرقناه[4].

وقال مرةً:

«خرج أهل الدنيا من الدنيا و لم يذوقوا أطيب شيءٍ فيها، فقيل: وما هو، قال: معرفة الله عز وجل».

١- المصدر السابق، ص (٢١).

٢- المصدر السابق، ص (٢٦).

٣- المصدر السابق، ص (٨١).

٤- سير أعلام النبلاء (٣٦٣/٥).

- **محمد بن واسع:**

الإمام الرباني القدوة، كان من ضمن جيش قتيبة بن مسلم، وقد قام مدةً في خراسان يعلم أهلها، ومن أقواله:

«إذا أقبل العبد بقلبه على الله أقبل الله بقلوب العباد عليه»[1].

سادساً: الاهتمام بالدعوة والعلم الشرعي:

ألزم عمر الدولة بكفالة عدد من العلماء والدعاة والمفكرين، كي تتيح لهم التفرغ الكامل لإنجاز مشاريع فكريةٍ دعوية تخدم المجتمع الذي هو أساس الدولة ومنشؤها، فأجرى لهم الأرزاق، ورتَّب لهم الرواتب ليتفرغوا لنشر العلم، فشجع بذلك كل من وجد في نفسه الإمكانية لنشر العلم وخدمة الدين والأمة[2]. فكان يمنح من بيت المال مبلغاً قدره مئة دينار لكل من انقطع إلى المسجد في بلدٍ إسلامي، لغرض التفقه ونشر العلم، وتدريس القرآن الكريم وتلاوته.

سابعاً: الفتوحات:

كانت سياسة عمر تقوم على ضبط الثغور وحدود الدولة الإسلامية، والاهتمام بفتح العقول، وإحياء القلوب، وتطهير النفوس للشعوب الجديدة التي دخلت في الإسلام، ولذلك بدأ يرسل سرايا الدعاة والعلماء للبدو القاطنين داخل الدولة الإسلامية وللشعوب التي كانت في أشد الحاجة لتعلم الإسلام[3].

١- المصدر السابق (٦/١١٩، ١٢١).

٢- عمر، عبد الستار الشيخ، ص (٧٢).

٣- الدولة الأموية، الصلابي، ص (٤١٨).

هذا شيءٌ من أخبار الخليفة العربي عمر بن عبد العزيز، الذي صدق فيه قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

ثامناً: أيامه الأخيرة:

١- آخر خطبةٍ خطبها:

«أيها الناس، إنكم لم تخلقوا عبثاً ولن تتركوا سدى، وإن لكم معاداً ينزل الله فيه للحكم فيكم، والفصل بينكم، وقد خاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء، وحرم الجنة التي عرضها السموات والأرض.

ألا ترون أنكم في كل يومٍ تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله قد قضى نحبه وانقضى أجله فتغيبونه في صدعٍ من الأرض، ثم تدعونه غير موسدٍ ولا ممهد، فارق الأحباب، وخلع الأسباب، وسكن التراب، ليواجه الحساب، وايم الله إني لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحدٍ من الذنوب أكثر مما عندي، فأستغفر الله وأتوب إليه.

ثم رفع طرف ردائه فبكى حتى شهق، وأبكى الناس حوله، ثم نزل ولم يخطب بعدها حتى مات رحمه الله(*).

*- تاريخ الطبري (٤٧٥/٧).

٢- كيفية موته:

عندما ملَّه بنو أمية، وضاقوا مما فعله بهم؛ من تجريدٍ للأملاك، ومعاملةٍ كأفراد الرعية، عمِدوا إلى خادمه ووعدوه بألف دينار وأن يعتق إن هو أعطاه السمَّ في الطعام، فكان الغلام يضطرب كلما أقبل على تلك الفعلة، فأخذوه وهددوه بالقتل إن لم يفعل، ففعل، فشرب عمر كوب مائه فأحسَّ بالسم وعلم أنَّها النهاية، فنادى الغلام وقال له: ويحك ما حملك على هذا؟ قال ألف دينار

وأن أعتق، قال: هاتِ الألف دينار وألقها في بيت مال المسلمين، ثم اذهب حيث لا يراك أحد[1].

فموقفه هذا يدل على تسامح فاق الحدود، فاستحقَّ لأجله ولأجل أعماله السابقة أن يكون من الخلفاء الراشدين. وسبب فعلته تلك أنَّه كان يوقن بأنَّ ما عند الله خيرٌ وأبقى، وأنه إن عفا عنه حصل له الثواب من الله، وإن انتصر منه فأقام عليه الحدَّ لم يأثم، ولكنه لا يحصل على أجر العفو، ونظراً إلى أنَّ همه في الدنيا أن يرتفع رصيده من الحسنات عند الله؛ فإنه فضَّل العفو على انتصاره لنفسه[2].

توفي رحمه الله إثر هذه الجريمة التي لن ينساها التاريخ، وكان نقش خاتمه: عمر بن عبد العزيز يؤمن بالله[3].

رحم الله عمر بن عبد العزيز أعطى أمته كل ما تحتاج، حتى أصبح أحدهم يحمل زكاة ماله فلا يجد متسولاً أو فقيراً بحاجةٍ إلى المال، فقد كفاهم عمر عن سؤال الناس، بل زادهم فوق المال عزةً في النفوس.

١- تذكرة الحفاظ (١/١٢٠).

٢- التاريخ الإسلامي (١٦/٢٢٩).

٣- تاريخ القضاعي، ص (٣٦٣).

(٩) يزيد بن عبد الملك
(١٠١-١٠٥هـ)، (٧٢٠-٧٢٤م)

أولاً: اسمه ونسبه وشيء من صفاته:

هو يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، أبو خالد القرشي الأموي، أمير المؤمنين، وأمَّه عاتكة بنت يزيد بن معاوية[١]. ولد بدمشق وكان رجلاً طويلاً جسيماً أبيض مدور الوجه[٢].

كان قبل الخلافة محبوباً في قريش، بجميل مأخذه بنفسه وهديه وتواضعه وقصده، وكان الناس لا يشكُّون إذا صار إليه الأمر أن يسير بسيرة عمر لما ظهر منه[٣]، وقد تلقَّى تربيته على علماءَ من أهل الدين والفضل.

وكان يُكثر من مجالسة العلماء قبل أن يلي الخلافة، ويحضر مجالسهم، ويتأدب بآدابهم ويصغي لكلامهم ويقبل توجيهاتهم ويأخذ العلم عنهم، وقد كان رأي عمر بن عبد العزيز فيه حسناً[٤]. فعلى ما يبدو أنه بلغ درجة رفيعةً من العلم، ولا سيّما حفظ الحديث وروايته مما جعل بعضهم يعدُّه من المحدثين[٥].

ثانياً: توليه الخلافة:

بويع له بالخلافة بعد عمر بن عبد العزيز، وسار في بداية حكمه بسيرة عمر ابن عبد العزيز إلا إنَّه لم يستطع المواصلة.

١- البداية والنهاية (١٢/١٣).

٢- سير أعلام النبلاء (١٥٠/٥).

٣- الدولة الأموية في عهد يزيد، عبد الله الشريف ص ٤٦.

٤- الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك ص (٦٥).

٥- الدولة الأموية في عهد يزيد، عبد الله الشريف ص (٦٥).

يقول الدكتور عبد الله الشريف:... لكن الواضح أن قدراته السياسية وكفاءته الإدارية، لم تكن تؤهله لملء مكانة وقيادة الدولة باقتدار، أو تحقيق العظيم من المنجزات والفريد من السياسات التي تلفت إليه الأنظار، فكان يزيد حاكماً عادياً، ليس سياسياً مقتدراً كمعاوية، أو إدارياً ناجحاً كعبد الملك، أو مصلحاً كعمر، كما لم يكن سيئاً كابنه الوليد بن يزيد، ويمكن القول: إن توليه الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز جعل المفارقة بينه وبين عمر واضحةً وكبيرةً وأدت إلى عتامة صورته لدى جمهرة المسلمين[*].

ثالثاً: أعماله في فترة الخلافة:

حرص يزيد على بقاء دولته مهيبة مصونةً في الداخل والخارج، ونجح في ذلك بإخماد كل الحركات الداخلية التي حدثت في زمنه وصدَّ القوى الخارجية الطامعة في حدود دولته، وإن كان قد اتخذ في سبيل تحقيق ذلك سياساتٍ تخالف نهج سلفه عمر[1].

ومن سمات سياسته الإدارية إتاحةُ الفرصة للموالي في إدارة الدولة، وشغل بعض الأعمال الكبيرة[2]، فقد سار يزيد على نهج عمر في استعمال الموالي في وظيفة القضاء.

١- سياسة يزيد بن عبد الملك المالية:

قد عمل يزيد بن عبد الملك على ضبط الأمور المالية بما يكفل زيادة الواردات ونقص المصروفات في شيءٍ من الدقة والضبط والتشدد والجور، وذلك لتلبية ظروف الدولة في زمنه، والمتمثلة في خوض حروبٍ خارجية في كل الجبهات[3].

---

*- الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك ص (٧٣).

١- دراسة مقارنة، عماد الدين خليل، ص (٣٠٤).

٢- الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد ص ٣٣٢.

٣- المصدر السابق، ص (٤١٨، ٤١٩).

٢- الفتوحات في عهد يزيد بن عبد الملك:

نشطت الفتوحات الإسلامية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، بعد حالة الاستقرار التي عاشتها أيام سلفه الخليفة عمر بن عبد العزيز، والذي لجأ لذلك لفعل شيءٍ من التوازن من أجل التفرغ لحركة الإصلاح الكبرى التي شهدها عهده[١].

وشهد عصره، حملةً من أهم الحملات التي قام بها المسلمون لفتح بلاد الغال[٢] عن طريق الأندلس؛ وهي الغزوة التي قادها السمح بن مالك الخولاني (١٠١-١٠٢هـ) إلى تلك الأصقاع [٣]، إلا أنَّ تلك الحملة لم تحقق أهدافها.

رابعاً: كارل بروكلمان يرفض الروايات التي تطعن بيزيد:

لقد انتبه المستشرق كارل بروكلمان[٤] إلى الروايات المزوَّرة عن الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك، فقال فيه: والروايات المعادية للأمويين تصور يزيد الثاني كما صوَّرت سميَّهُ (يزيد الأول) من قبلُ رجلاً مستهتراً انغمس في مناعم اللهو والموسيقى، وشغلته القيان والمغنيات، فترك شؤون الأمصار إلى أمرائه وعماله يصرفونها كما يشاؤون. إلا أنَّ الواقع يشهدُ أنَّ عهده القصير ظلَّ حافلاً بضروب النشاط الجدي حتى بعد القضاء على الفتنة بالعراق، فقد وحَّد الإدارة في مكة والمدينة وأدخل إصلاحات مالية كثيرة.. وإنَّه لمن العسير أن يُنسب إلى مثل هذا الرجل من العاطفة ما جعله يحزن لوفاة جارية من جواريه- كما تحاول بعض الروايات أن تُثبت- حزناً أدى إلى وفاته[٥].

١- المصدر نفسه ٢٣٣.

٢- بلاد الغال: تغني فرنسا أيام الإمبراطورية الرومانية .

٣- الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد ص (٢٩٠).

٤- كارل بروكلمان: (١٨٦٨_١٩٥٦) مستشرق ألماني يعتبر أحد أبرز المستشرقين في العصر الحديث، وهو عالم بتاريخ الأدب العربي.

٥- تاريخ الشعوب، جـ١، ص (١٨٣، ١٨٤).

خامساً: وفاة يزيد بن عبد الملك:

قيل إنَّ يزيد مرض بالسل، ومات يوم الجمعة لخمس بقين من شعبان من سنة ١٠٥هـ، وحمل على أعناق الرجال حتى دُفن بين باب الجابية وباب الصَّغير بدمشق، وكان قد عهد بالأمر من بعده لأخيه هشام ومن بعده لولده، فبايع الناس من بعده هشاماً[١]، وكان نقش خاتم يزيد: قني السيئات يا عزيز[٢].

١- المنتظم (٩٩/٧).

٢- البداية والنهاية (١٢/١٣).

إذا لم تحاول أن تفعل شيئاً أبعد مما قد أتقنته.. فأنك لا تتقدم أبداً
(رونالد.اسبورت)

(١٠) هشام بن عبد الملك
(١٠٥ - ١٢٥هـ)، (٧٢٤ - ٧٤٤م)

أولاً: اسمه ونسبه وشيء من صفاته:

هو هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، أبو الوليد القرشي الأموي الدّمشقي، أمير المؤمنين[١]. وكان جميلاً أبيض البَشَرَة، وهو الرابع من ولد عبد الملك الذين وُلوُّا الخلافة، وكان ذكياً فيه حلم وأناة [٢]. قال فيه الذهبي: كان عاقلاً حازماً سائساً فيه ظلم وعدل [٣].

ثانياً: نبذةٌ عن حيا ته الخاصة:

١- اتهامه بالبخل:

وُصف هشام بالبخل وجمع المال، قال الجاحظ: كان هشام يقول: ضع الدرهم على الدرهم يكون مالاً [٤]. ويبدو أن السبب في هذا الوصف شدة مراقبته للمال العام، فقد كان شديد المحاسبة للمشرفين على الديوان، وحريصاً على مال المسلمين ولذلك وصفه الشعراء والكتاب بالبخل؛ لأنَّ الشعراء اعتادوا الهبات الكبيرة من ملوك بني أمية[٥].

١- البداية والنهاية (١٣/١٥١).
٢- الكامل في التاريخ (٣/٣٠٨).
٣- سير أعلام النبلاء (٥/٣٥٢).
٤- عصر هشام بن عبد الملك ص (٥٩)
٥- الخلافة الأموية، عبد المنعم الهاشمي ص (٣٧١).

وقد شهد لجدارته أحد خصومه حيث قال عبد الله بن علي بن العباس: جمعت دواوين بني مروان؛ فلم أر ديواناً أصحَّ ولا أصلح للعامة والسلطان من ديوان هشام[1].

٢- اتهامه بشرب الخمر:

جاءت روايات لا يصحُ إسنادها تُشير إلى أنَّ هشام بن عبد الملك كان يشرب الخمر، وتلك الروايات لا تصحُ من حيث السند، كما أنَّ سيرة هشام منافيةٌ لهذا الاتهام الباطل، فقد عاقب وليَّ عهده، لإقباله على الشرب، كما كان يلزم ابنه مسلمة الأدب وحضور الجماعة[2].

٣- تربيته لأولاده:

اختار هشام لأولاده العالم الفاضل محمد بن مسلم بن عبيد الله ابن شهاب الزهري لتأديبهم[3]، واختار هشامٌ لأولاده أيضاً من يعلمهم اللغة والشعر وكان يحضر أحياناً مجالس مؤدبيهم[4]، وكان يعطي مؤدبَ ولده ألف درهم كل شهر، إلى جانب الكسوة والجوائز[5].

كان من ثمرات هذه التربية الفاضلة ولادةُ حفيده عبد الرحمن بن معاوية بن هشام مؤسس الدولة الأموية في الأندلس .

١- عصر هشام بن عبد الملك، ص ٥٩.

٢- عصر هشام بن عبد الملك ص ٦٣.

٣- البداية والنهاية نقلاً عن عصر هشام بن عبد الملك ص ٧٣.

٤- عصر هشام بن عبد الملك ص ٧٣.

٥- مكانة المعلم في التراث العربي الإسلامي ص ١٥٤.

ثالثاً: أعمال خلافته:

١- علاقته بالرعية:

كان هشام يستقبل وفود الأمصار فيلبي حاجاتهم، ويخرج مع مستشاريه يصنعُ لهم الطعام بنفسه، فيأكل منه، ويأكل معه الناس، وإن نشبت بينه وبين أحدٍ من أشراف رعيته خصومةٌ لم يجد سبيلاً لقضائها إلا أن يمثلَ بنفسه أمام القضاء مع خصمه ويُلزم أهل بيته بذلك، حتى لو كان خصم أحدهم نصرانياً[1].

٢- اهتمامه بالآثار الأدبية الخاصة بالأمم الأخرى:

كان الخليفة هشام بن عبد الملك مشغوفاً بالاطلاع على الآثار الأدبية الخاصة بالأمم الأخرى، فقد أمر بترجمة كتبٍ عن تاريخ فارس وغيرها من الأمم، وتسرَّب هذا الشغف إلى المحِيطينَ به، فترجم مولاه سالم بعض كتب أرسطو إلى العربية.

٣- النظام الإداري:

كان النظام الإداري للولايات الأموية امتداداً للعهود التي سبقته، وكانت الولايات أيام هشام بن عبد الملك بصورة عامة هادئة، سوى بعض حركات الخوارج التي قامت في العراق وثورة زيد بن علي بالكوفة، والدعوة العباسية التي كانت تنتشر بصمتٍ في خراسان، فإذا عُرف بعض أتباعها قُتلوا، أما في الأندلس وفرنسا فقد كانت فيها فتوحاتٌ عظيمة؛ فكان المجاهدون فيها لا يزالون بعيدين عن التناحر، ولكنَّه لم يلبث أن دخل إليهم، فانسحب المسلمون من وسط فرنسا

١- الكامل في التاريخ (٣/٣٩٢).

بعد معركة بلاط الشهداء، واستقروا في جنوبها[1].

٤- الفتوحات:

لم يشهد عهد هشام فتوحاتٍ واسعةً كالتي حدثت أيام الوليد، وإنَّما كانت غزواتٍ يحدثُ فيها تقدمٌ قليل ثم يعود المسلمون على إثرها إلى ثغورهم، أو تُفتحُ رقعةٌ صغيرة من الأرض، أو بعض الحصون، أو يحدث قتالٌ بسبب نقض العهد من قبل أعداء المسلمين، الأمر الذي يضطر فيه المسلمون إلى معاودة قتالهم وإجبارهم إلى طلب الصلح ثانية ودفع الجزية[2].

بلاط الشهداء:

من أشهر معارك الفتوح التي حدثت في عهد هشام معركة بلاط الشهداء التي قادها البطل المسلم عبد الرحمن الغافقي[3]؛ الذي اشتُهر بورعه وتقواه وصلاحه، فقد استطاع هذا القائد العظيم أن يعبرَ جبال البرينيه[4] في أوائل عام ١١٤هـ، مع نحو سبعين ألفاً من المسلمين، فاستطاع فتح مدينة آرل، ثمَّ سجَّل

١- التاريخ الإسلامي، محمود شاكر (٢٦٧/٤).

٢- التاريخ الإسلامي (٢٧٤/٤).

٣- عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي: يعود نسبه إلى قبيلة غافق اليمنية، وهو قائد عربي مسلم وأمير الأندلس، شارك في فتح الأندلس في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، وتولى إمارتها مرتين عام ٧٢١م، ثم في عام ٧٣٠ م، قام عبد الرحمن بإخماد الثورات والفتن القائمة في الأندلس بين العرب والبربر، وبين العرب أنفسهم، وعمل على تحسين وضع البلاد الأمني. استُشهد في معركة بلاط الشهداء سنة (٧٣٢م الموافق ١١٤هـ) قرب مدينتي تور وبواتييه الفرنسيتين وذلك بعد أن حاول فتح أراضي الفرنجة (فرنسا اليوم).

٤- سلسلة جبلية تقع جنوب غرب أوروبا، تشكل الحدود الطبيعية بين فرنسا وإسبانيا.

عبد الرحمن نصراً رائعاً على الدوق أُودو، فأسرع أُودو إلى كارل مارتل يستنجده[1]، ولا سيّما بعد أن اجتاح الغافقي نصف فرنسا الجنوبي كلَّه من الغرب إلى الشرق، ووصلت جيوش المسلمين للمرة الثانية إلى أبواب باريس في غضون سبع سنوات ،واستولوا على بواتييه[2]، فأدرك حينها كارل مارتل أنَّ دولة الفرنجة ذاتها هي الخطوة التالية للمسلمين، فقرر التحالف مع الدوق أودو لمواجهة الخطر الإسلامي المشترك، فكانت المنازلةُ الكبرى بين الجيش الإسلامي والجيش الفرنجي في ١١٤هـ/٧٣٢م في سهل يقع شمال بواتييه، فعرفت المعركة في المصادر الأجنبية باسم معركة بواتييه، ولكنَّها عرفت في المصادر العربية باسم بلاط الشهداء لكثرة من قُتل من المسلمين، وعلى رأسهم الغافقي فكانت الهزيمة للمسلمين[3].

لوحة فنية للفنان كارل فان ستوبين تصور معركة بلاط الشهداء أو بواتييه

١- عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي ص ١٠٧.

٢- مدينة تقع على نهر (كلين) في وسط غرب فرنسا، ومن هذه المدينة اكتسبت المعركة اسمها لدى الغرب.

٣- الدولة الأموية دولة الفتوحات ص (٦٥).

كانت بواتييه «بلاط الشهداء» في أواسط تشرين الأوّل ٧٣٢م، أواخر شعبان ١١٤هـ، وتُثبت المراجع تفوقَ المسلمين على أعدائهم في بدء المعركة، ثمَّ حدث أن اندفعت فرقةٌ من الفرنجة إلى خلف صفوف المسلمين، حيثُ أودع المسلمون غنائمهم، فخشي الكثير منهم أن يستولي الفرنجة على غنائمهم، فالتفتَ بعضهم وعاد إلى الخلف ليُبعد الأعداء عنها، وهنا اضطربت صفوف المسلمين، واتَّسعت الثغرة التي دخل منها الفرنجة، ودار القتال بعنفٍ وقوة فزلزل نظام المسلمين، وحاول عبد الرحمن بكلِّ جُهده أن يثبت جنده، ويُعيد النظام، وأن يصرف الجند عن الهلع عن الغنائم، فلم يُوفق، وأصابه سهمٌ أودي بحياته، فكان ذلك بداية الهزيمة؛ إذ انهال الفرنجة على المسلمين من كل جانب، وصبر المسلمون حتّى أقبل الليل فانتهزوا فرصة حلول الظلام، وتسلَّلوا متراجعين إلى الجنوب على عجل وكان ذلك في ٢٠ تشرين الأول ٧٣٢م أوائل شهر رمضان ١١٤هـ[1].

لقد ترتَّب على نتائج بلاط الشهداء تغييرُ مجرى التاريخ إلى حدٍ كبير، ولم تَحُل هذه الصدمة دون إعادة الكرَّة على فرنسة، إذ إنَّ الهزيمة وحدها لم تكن لتوقفَ المسلمين عند هذا الحد، بل كانت لهم بعد بلاط الشهداء كَرَّاتٌ أعقبها النصرُ والفتح لبعض الحصون والمواقع، غير أنَّ أهمية بلاط الشهداء ترجع إلى أنَّ المسلمين ارتدوا عن فرنسة ولم يستطيعوا إخضاعها تماماً... ولو تحقق إخضاعها كاملةً لزالت عصورها الوسطى المظلمة باكراً، ولحقت بركب الحضارة والتقدم في الأندلس خلال عيشها في رحاب الإسلام، فلا غرابة إذ إنَّ العديد من الكتَّاب الغربيين الذين رأوا روعةَ الإسلام وحضارته أينما حلَّ، عدُّوا نتيجة بلاط الشهداء نكبةً كبيرةً أصابت أوربة، وضربةً عنيفةً حرمتها من الحضارة المنيرة وكرامة

١- عوامل النصر والهزيمة ص (١٠٩).

الإنسان[1] التي كانت في أوجها في الدولة الإسلامية آنذاك، بينما أوربا تعيش في عصورها المظلمة.

الأثر الحضاري للفتوحات في عهد هشام:

كان قادةُ الخليفة في فتوحاتهم يتخيرون رُسُلهم من أهل العلم والورع والفضل لدعوة أهل الكفر إلى الإسلام، هذا مع استعانتهم بالمترجمين الحاذقين بلغةِ العدو، وكان الجند يواظبون على تلاوة القرآن الكريم ويتناشدون الأشعار فيما بينهم أثناء وجودهم في جبهة القتال، فكان ذلك يؤثر في حركتهم ونشاطهم ويزيد من حماستهم وتضحياتهم، وكان انتشر الفتوحات مرافقاً لانتشار الإسلام، فما من قرية تفتح حتى يدخلها العلماء وحفظة القرآن لتعليم أهل البلد، ودعوتهم للشريعة الإسلامية[2].

رابعاً: العلماء في عهد هشام:

حاول هشام أن يُمسك العصا من الوسط، فحاول أن يسير وسطاً بين سياسة عمر بن عبد العزيز الإسلامية الخالصة وسياسة الملك، ووسطاً بين عصبية القبائل القيسية واليمانية[3]، وهذا ما دعا الذهبي حين وصف سياسته أن يقول فيه:... فيه ظلمٌ مع عدل[4].

١- سالم بن عبد الله بن عمر مع هشام بن عبد الملك:

دخل هشام مرَّةً إلى الكعبة فإذا هو بسالم بن عبد الله بن عمر، فقال: سَلْني حاجتك، قال: إنّي أستحي من الله أن أسأل في بيته غيره، فلمّا خرجا قال: الآن

١- التاريخ الأندلسي ص ١٩٩، ٢٠٢.

٢- الإدارة العسكرية (٢/٧٣٠، ٧٣١).

٣- أثر العلماء على الحياة السياسية، ص ١١٦

٤- سير أعلام النبلاء (٥/٣٥٢).

فسلني حاجتك. فقال له سالم: من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة ؟ فقال: من حوائج الدنيا، قال: والله ما سألت الدنيا من يملكها فكيف أسألها من لا يملكها[1].

٢ – الإمام محمد بن شهاب الزهري:

نشأ الإمام الزهري في المدينة المنورة بعد ولادته فيها، وكانت المدينة محطَّ أنظار طلاب العلم، وعشاق المعرفة الذين وفدوا إليها من كل حدب وصوب، وقد بدأ رحمه الله طلبه للعلم باكراً وكان أوَّل شيءٍ اتجه إليه القرآن الكريم، فقد حفظه في ثمانين ليلة، وتعلَّم علم الأنساب ثم السنة المطهرة، ومعرفة الحلال والحرام، ويعتبر الزهري من التابعين[2].

ويعدُّ الزهري من العلماء الذين خالطوا خلفاء بني أمية وصاحبوهم، وكانت له عندهم منزلةٌ رفيعة، يقول عنه الذهبي: كان رحمه الله– محتشماً جليلاً له مكانةٌ كبيرةٌ في دولة بني أمية، ويُذكر أنَّه كان برتبة أمير[3].

كانت وفاة الزهري عن نيِّفٍ وسبعين سنة ليلة الثلاثاء، لتسع عشرة أو لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان، سنة أربع وعشرين ومائة على أرجح الأقوال[4].

خامساً: وفاة هشام بن عبد الملك:

توفي –رحمه الله– عام ١٢٥هـ[5]، وكان نقش خاتمه: الحُكم للحكم الحكيم[6].

١– سير أعلام النبلاء (٤٦/٤).
٢– تذكرة الحفاظ (١٨٠/١)، سير أعلام النبلاء (٩٣/٥).
٣– سير أعلام النبلاء (٣٣٧/٥، ٣٤١).
٤– السنة قبل التدوين، ص (٥٠٠).
٥– البداية والنهاية (١٥٨/١٣).
٦– المصدر السابق (١٥٩/١٣).

سادساً: هشام وولاية العهد:

كان هشام خليفةً مهيباً فيه حكمة وقوة من سبقه من خلفاء بني أمية، ولكنه لم يبتكر شيئاً جديداً للأمة، و لم يضف لصفحة إنجازات الأمويين شيئاً يذكر، بل إنَّه عندما أراد أن يحدث شيئاً جديداً بعزل ولي عهده- ابن أخيه يزيد- وذلك لقلَّة حكمته، ولهوه زاد الأمر سوءاً، إذ شاور جميع أركان دولته بهذا وأخذ منهم العهود والموافقة، إلا أنَّه تردد في حسم الأمر وسبقته المنية، فاعتلى الوليد عرش الخلافة من بعده لينتقم ممن وافق على خلعه من رجال الدولة وقادتها[1].

١- ولذا اخترنا لهشام بن عبد الملك جملة رونالد.اسبورت.

(١١) الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥هـ/٧٤٤م)

أولاً: اسمه وشيء من صفاته:

هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، أبو العباس الأموي الدمشقي، ولد سنة ٩٠هـ/٧٠٩هـ[١]. ويقول العصامي: كان أكملَ بني أمية أدباً وفصاحةً، وأعرفهم باللغة والحديث، وكان جّواداً، وتبالغ بعض المصادر في وصف سلوكه السيئ، في حين تنفي بعض المصادر الأخرى عنه ذلك، وتصفه بالخليفة المجمع عليه [٢].

ثانياً: أعماله في فترة الخلافة:

استهلَّ الوليد خلافته بالاهتمام بأحوال رعيته اهتماماً شاملاً؛ إذ شرع في إعداد الخطط، وجدَّ في تنفيذها لتحسين أوضاع المواطنين المعيشيَّة تحسيناً ملحوظاً، كسباً لودِّهم، وإظهاراً لفضله على هشام بن عبد الملك، ولبلوغ هذه الأهداف اتَّخذ الوليد ثلاثة قرارات:

١- رفعُ مستوى الخدمات التي تُقدمها الدولة: للمواطنين في العاصمة، فواسى البؤساء والضعفاء والعجزة والقاعدين والمكفوفين من أهل الشام ووزَّع المعونات والهدايا على أطفالهم[٣].

٢- زيادة رواتب المواطنين المسجَّلين في ديوان العطاء: فرفع رواتب أهل الأمصار جميعاً عشرة دراهم، ومنح أهل الشام عشرة دراهم أخرى، وضاعف

١- تاريخ الخلفاء، ص (٢٥٠)، الخلافة الأموية، للهاشمي، ص (٣٨٩).

٢- الكامل في التاريخ نقلاً عن الخلافة الأموية ص (٣٩٠).

٣- سيرة الوليد بن يزيد، د. حسين عطوان، ص (٢٥٥).

الأعطيات والهبات لأقربائه الذين قدموا عليه، وأعلنوا مساندتهم له، وأكرم كلَّ من قصدوه وسألوه، وتألَّفَ أهلَ المدينة ومكة واسترضاهم، فأعاد إليهم أرزاقهم وحقوقهم المالية.. فأنفق الوليد في هذه الوجوه والسبل الإصلاحية ما حاز من ثروة هشام، وما وجد في خزائن الدولة من أموال، حتَّى أفلس، ووقع في ضائقةٍ خانقة[1].

٣- اهتمامه بشؤون الدولة العسكرية: اعتنى الوليد بشؤون الدولة العسكرية، ولم يُفرِّط فيها ولكنَّ حركة الجهاد كانت قد ضعُفت منذ نهاية العقد الأخير من القرن الأول، وتحّول دور المسلمين في حدودهم الشرقية مع الترك، وحدودهم الشمالية مع الروم من الهجوم والفتح إلى الدفاع والحفاظ على البلدان التي نشروا الإسلام فيها، وبسطوا سلطانهم عليها، ومع ذلك فإنَّه تَّمت في عهد الوليد بعض الفتوح الجديدة، وأغار بعض إخوته على الروم غاراتٍ كثيرة ناجحة[2]، ففتحت قبرص في عهده.

ثالثاً: يزيد بن الوليد بن عبد الملك والانقلاب:

كثُر الأمراء الأمويون في الفترة الأخيرة من دولتهم، وكان أغلبهم من ذرية عبد الملك وعبد العزيز، ومحمد بن مروان بن الحكم، وأقلهم من حفدة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، ويستفاد من أخبارهم أنَّهم كانوا طائفتين، فمعظمُ الأمراء الصغار من أولاد الوليد وهشام والحجاج بن عبد الملك بن مروان، ومن أبناء عمر بن عبد العزيز كانوا عصبة واحدة على الوليد، جمع بينهم التَّذمُر منه والمنافسة له والطمع في عزله، وكان يزيد بن الوليد بن عبد الملك أدهى خصوم الوليد وأشدهم طعناً فيه، وأكثرهم تحريضاً عليه، وأقواهم عزماً على الإطاحة به،

١- المصدر السابق، ص (٢٥٦).

٢- المصدر السابق، ص (٢٥٧).

وقد حاول أخوه العباس بن الوليد أن يعارضه ويمنعَه من الخروج عن الطاعة حرصاً على وحدة بني أمية ومصلحتهم وحمايةً لسلطانهم ودولتهم[1].

إلا أنَّ يزيد أصرَّ على خروجه، فأقنع الأمراء الصغار بضرورة الثورة على الخليفة الوليد، فأجابوه لذلك مما علموا من تواضعه وأخلاقه الرفيعة. وقد ذكر بعض المؤرخين أنَّ يزيد كان ابن أم فارسية، ولم يكن له من المنزلة في الأسرة المروانية ما كان لغيره من أبناء الخلفاء من الحرائر العربيات، فحُرم هو وإخوته وسواهم من الأمراء الأمويين من أبناء الأعجميات من الخلافة [2].

ويقول الدكتور الصلابي في مسألة يزيد بن الوليد: «ورأيي أن يزيد بن الوليد بن عبد الملك طالب ملك، وصراعه مع ابن عمه الوليد سياسي، ولأجل ذلك نظم يزيد حملةً إعلاميةً شرسة لتلطيخ سمعة الوليد، وسحب بساط الخلافة من تحته»[*].

بدء المعركة:

وضع يزيد بن الوليد خطةً محكمةً لإعلان الحركة، واستيلائها على مقاليد الأمور بدمشق، مُستغلاً الظروف في تلك الفترة؛ فقد انتشر الطاعون في بلاد الشام، إضافةً إلى انحباس المطر وانتشار الجفاف، وكانت العاصمة دمشق خاليةً في تلك الأيام من الخليفة وكبار رجال دولته، حيث كان الخليفةُ الوليد بن يزيد معتزلاً في البادية للعلاج من عارضٍ صحي ألمَّ به، وتجنباً من الطاعون[3]. فبدأ

١- المصدر السابق، ص (٢٨٥، ٢٨٦).

٢- سيرة الوليد بن يزيد، ص (٣١٩).

*- الدولة الأموية، د. الصلابي، جـ ٢، ص (٦٧٠).

٣- القدرية جدلية الدين والسياسية في الإسلام ١٠٤.

يزيد بتحركاته ليلة الجمعة ٢١جمادى الآخرة ١٢٦هـ/ ٩ نيسان ٧٤٤م، فاستطاع السيطرة على دمشق، وبدأ يستميل أهلها بالعطايا استعداداً للخروج على الخليفة والقضاء عليه[١].

ووصلت الجيوش المعارضة إلى الخليفة، وابتدأ القتال بين الجانبين، وكان نجاح المعركة في صف المعارضين نظراً لاستعدادهم التَّام لهذا الأمر، على عكس الخليفة الذي لم يكن يتوقع هذا الهجوم الغادر.

وتمكَّن المعارضون من محاصرة قصر الخليفة، ودخلوا عليه من كل جانب فحاول الخليفة استعطاف جيش الحركة بتذكيرهم بمآثره عندَهم، فدنا من باب القصر، وقال: هل فيكم رجلٌ شريف له حسبٌ وحياء أكلّمه، فقام له رجلٌ يدعى يزيد بن عنبسة السكسكي، فقال له الوليد: يا أخا السكاسك ألم أزد في أعطياتكم؟ ألم أدفع المؤن عنكم؟ ألم أعط فقراءكم؟ ألم أخّدم زمناكم؟ فقال: إنَّا ما ننقم عليك في أنفسنا، ولكن ننقم عليك في انتهاك ما حّرم الله فقال الخليفة: حسبك يا أخا السكاسك، فلعمري لقد أكثرت وأغرقت، وإنَّ فيما أحل الله لي لسعةً عمَّا ذكرت[٢].

ولكن لم يَجد الخليفة آذاناً صاغية من أفراد جيش المعارضة، فرجع عندها الوليد إلى داخل الحصن، ونشر مصحفاً يقرؤه بين يديه وقال: يوم كيوم عثمان[٣].

فكان قتله في يوم الخميس ٢٧ جمادى الآخرة ١٢٦هـ/١٦ نيسان ٧٤٤م، وكان خاتم الوليد منقوش عليه: يا وليد احذر الموت[٤].

١- انظر: تاريخ الطبري (١١٨/٨).

٢- تاريخ الطبري (١٢٢/٨).

٣- المصدر نفسه (١٢٢/٨).

٤- تاريخ القضاعي ص ٣٧٥.

رابعاً: نتائج قتل الوليد:

أ- ضعفُ الخلافة الأموية، وذهاب هيبتها وضياع جلالها وانهيار سلطانها على العامة والخاصة والجند في الأمصار المختلفة وذلك بسبب مقل الوليد بن يزيد.

ب- نشأ عن قتل الوليد تفسخُ الأسرة الأموية بفرعيها السُّفياني والمروانيّ وتناحرهما وتفانيهما في سبيل الفوز بالحكم والملك[1].

جـ- تتابع الفتن: اضطرب حبل بني مروان بعد مقتل الوليد وهاجت الفتن وتتابعت الأحداث، ولم تنقطع إلا بزوال الملك.

خامساً: شهادة العباسيين بالوليد:

كان المهدي الخليفة العباسي إذ ذُكر الوليد في مجلسه يقول: رحمه الله، ولا رحم قاتله، فإنه كان خليفة مجمعاً عليه. وقيل له: إن الوليد كان زنديقاً، فقال: إن خلافة الله أعز وأجل من أن يوليها من لا يؤمن به[*].

ويروى أن ابناً للغَمِر بن يزيد بن عبد الملك دخل على الرشيد الخليفة العباسي فقال: ممن أنت ؟ قال: من قريش، قال: من أيّها؟ فأمسك، فقال: قل وأنت آمن ولو أنك مرواني، فقال: أنا ابن الغَمر بن يزيد، فقال: رحم الله عمك، ولعن يزيد الناّقص وقتلة عمّك جميعاً، فإنهم قتلوا خليفةً مجمعاً عليه ارفع حوائجك لأقضيها لك[*].

١- سيرة الوليد بن يزيد ص ٣٣٠.

*- أنساب الإشراف نقلاً عن سيرة الوليد بن يزيد ص ٢٣٧.

*- الكامل في التاريخ (٤١٢/٣).

(١٢) يزيد بن الوليد بن عبد الملك

(١٢٦هـ/٧٤٥م)

أولاً: اسمه ونسبه:

هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، وأمه شاه آفريد بنت فيروز بن يزدجرد، آخر ملوك الفرس[١]، وكان يجمع في أصوله بين الدم العربي والفارسي والرومي والتركي، فجده لأبيه عبد الملك بن مروان، وهو عربي، وجده لأمه فيروز بن يزدجرد وهو فارسي، وجدة جده لأمه ابنة قيصر، وأم جدته لأمه ابنة خاقان الترك[٢]، فكان يفخر بذلك ويقول:

أنا ابنُ كسرى وأبي مروان وقيصرُ جدي وجدي خاقان[٣]

ثانياً: خلافته:

لم تدم خلافة يزيد التي خرقت الصفَّ الأموي أكثر من ستة أشهر إذ توفي بالطاعون[٤]، وكان نقش خاتمه: يا يزيد قم بالحق[٥].

ثالثاً: ولاية العهد:

ولي بعد يزيد أخوه إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك بن الحكم، وأمه أمةٌ بربرية، وكان قد بويع له بالخلافة بعد وفاة أخيه يزيد بعهدٍ منه، في نهاية ذي حجة سنة ١٢٦هـ ولكن لم يتمَّ له الأمر، فكان الناس كما يقول الطبري: جمعةً

١- سير أعلام النبلاء (٣٧٤/٥) العالم الإسلامي في العصر الأموي ص ٢٠٣

٢- العالم الإسلامي في العصر الأموي ص ٢٠٣.

٣- سير أعلام النبلاء (٣٧٥/٥).

٤- المصدر السابق (٣٧٦/٥).

٥- تاريخ القضاعي، ص (٣٧٧).

يسلمون عليه بالخلافة وجمعةً بالإمارة، وجمعةً لا يسلمون عيه بالخلافة ولا بالإمارة[1].

وفي تلك الأثناء علم مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بوفاة يزيد وبيعة أخيه إبراهيم فأخذ يزحف إلى دمشق ففرَّ إبراهيم وبعض الأمراء هاربين قبل قدومه؛ وكان قد خرج مروان للمطالبة بدم الوليد بن يزيد، وإنهاء هذا التحارب والاختلاف بين الأمراء الصغار، فلمَّا دخل دمشق بايعه الناس بعد أن أخبروه بهرب الأمراء الصغار، وبذلك أصبح مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين[2].

١- تاريخ الطبري (١٨٢/٨).

٢- تاريخ الطبري (١٩٥/٨، ١٩٦).

(١٢) مروان بن محمد
(١٢٧ - ١٣٢هـ)، (٧٤٤ - ٧٤٩م)

أولاً: اسمه ونسبه:

هو مروان بن محمد ين مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، كنيته أبو عبد الملك، أمير المؤمنين، آخر الخلفاء الأمويين ولقب الجعدي نسبةً إلى مؤدبه الجعد بن درهم[١] ولقب بالحمار؛ لصبره على الحروب والوقائع التي مرَّت على رأسه أيام إمارته وخلافته[٢]. وتلقيبه بالحمار من ظلم المؤرخين لأنَّها تسميةٌ بعيدةٌ عن العدل والإنصاف؛ إذ كان الأولى أن يسمى الشجاع أو الصبور.

ثانياً: صفاته:

كان- رحمه الله- مشهوراً بالفروسية والإقدام، والرجولة والدهاء وكان أشقر، أبيض مشرباً بحمرة، أزرق العينين كبير اللحية، ضخم الهامة، وكان شجاعاً بطلاً مقداماً حازم الري[٣].

وكان مروان من القادة المبدعين، فهو إلى جانب مهارته في القيادة وحيله الحربية ومعرفته بنفوس المحاربين، كان يفاجئ العدو بخطط حربية لم يألفها، فكان بعدد صغير من الجيش يقضي على عدد كبير من الأعداء، ويذكرنا مروان بن محمد في حروبه برومل[٤] بطل الألمان في حربه للإنجليز بشمال إفريقية في الحرب العالمية الأخيرة[٥].

١- تاريخ الخلفاء ص (٢٥٤)، البداية والنهاية (٢٦٢/١٣).

٢- الحركات المناهضة لخلافة مروان بن محمد، مهند ماهر ص ١٩.

٣- سمط النجوم (٢٢٩/٣) الخلافة الأموية للهاشيم ص (٤٠٩).

٤- إرفين رومل بالألمانية: (Erwin Rommel): ١٨٩١- ١٩٤٤، كان يلقب بثعلب الصحراء أثناء قيادته للقوات الألمانية في شمال إفريقيا سنة ١٩٤٢.

٥- الدولة الأموية، يوسف العش، ص (٤١٠).

فكان من عبقريَّة مروان أنَّه لم يعتمد على التنظيم القبلي، بل جعل جيشه مقسماً أقساماً متشابهة متكاملة في أجزائها، تستطيع الفرقة أن تلعب في ميدان القتال بمفردها ما تفعله عّدة قبائل غير متجانسة، وكان مروان يلقي بكتيبةٍ من كتائبه في الحرب فرقة بعد فرقة، فإذا ظنَّ العدو أنَّه تمكن من الكتيبة التي تحاربه، أتته كتيبةٌ أخرى تذهله بقوتها الجديدة.

أضف إلى ذلك أنّ مروانَ كان شيخاً محنَّكاً حين توفي يزيد بن الوليد، فقد كان تجاوز الخامسة والخمسين من العمر، وكان يعد شيخ بني أمية، وهو رجلٌ ذو طموح عجيب، وقد وجدَ أن من بقي من بني أمية لم يكونوا بمستواه من القدرة والقوة والكفاية، فطمع بالخلافة، وتلك بادرةٌ من بوادر انهيار الدولة الأموية، فبدلاً من أن تنتقل الخلافة بالعهد- كما هو السائد في النظام الأموي- صار الطامحون يسعون إليها بالقوة، أو بالمؤامرات، كما فعل يزيد بن الوليد قبل مجيء مروان[1].

وبالرغم مما كان يتمتع به مروان بن محمد من صفاتٍ مثل الشجاعة والإقدام وسداد الرأي وغيرها من الصفات التي تؤهله لمنصب الخلافة، إلا أنَّ الله قدَّر أن تُكتب على يديه نهاية الدولة الأموية، وأن يكون هو الفصل الأخير في تاريخها، وقد لا يكون هو المسؤول الأول عن ذلك، فإنَّ العوامل التي أدت إلى زوال الدولة كانت تتفاعل منُذ زمن بعيد، فقُدِّر له وحده أن يصارع أحداثاً كانت كلها تعمل ضده، وأولها انقسام الأمويين على أنفسهم[2].

١- الدولة الأموية، ص (٣٠٦).

٢- الدولة الأموية، د. الصلابي، جـ ٢، ص (٦٩٣)

ثالثاً: خلافته وزوال الدولة:

بدأت الأمور وكأنَّها آخذةٌ في الاستقرار له، ولكنَّ ذلك الهدوء لم يكن إلا بمنزلة السكون الذي يسبق العاصفة، فلم تلبث الأنباءُ أن وافت دار الخليفة بنشوب الاضطراب في الشام مرَّة ثانية، وبسريان حمَّى الثورة من جديد[1].

فسرعان ما قلبَ له أمراءُ بني أمية وجوههم ، وقابلوه بالعصيان والتمرد[2]. وفي هذا الجو العصيب الذي انقسم فيه الأمويون على أنفسهم وأخذوا يحاربون بعضهم البعض، وبينما مروان يحاولُ رأب الصدع وإعادة الأمور إلى نصابها في الشام والحجاز والعراق واليمن، وينتقل من ميدانٍ إلى ميدان، فاجأته الثورة العباسية من خراسان كالسيل المُنهمر، فاكتسحت قوَاته في خراسان والعراق، ثمَّ كانت هزيمته الساحقة في موقعة الزاب في جمادى الآخرة ١٣٢هـ محاولاً مواجهة جيوش الثورة العباسية، فهرب إلى مصر وقُتل هناك في ذي الحجة من العام نفسه[3].

١- العالم الإسلامي في العصر الأموي ص (٢١٠).

٢- المصدر نفسه ص (٢١٢).

٣- العالم الإسلامي في العصر الأموي ص (٢١٤).

إضاءات

مروان بن محمد وعبد الملك بن مروان

واجه مروان بن محمد الظروف ذاتها التي سبق أن واجهها عمه عبد الملك بن مروان، حيث قمع الثورات الداخلية بين القبائل الناتجة عن أزمة ما بعد معاوية الثاني، وأسقط دولة ابن الزبير التي كانت قائمة فعلاً، لا في طور التأسيس كما هي دولة بني العباس عهدَ مروان بن محمد، ومن ثمَّ نحن لا ننقص محمد بن مروان حقَّه ووزنه التاريخي، ولكننا نشير أنَّه لو كانت عزيمة وحكمة محمد شبيهةً بعزيمة وحكمة عمه عبد الملك؛ لاستطاع أن يعيد الأمور إلى نصابها ولكن يبدو أنَّ الخطر الذي هدد دولة الأمويين كان قد عظمُ تراكمه فغلب محمداً ودولته.

الخاتمة

قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [آل عمران، آية: ٢٦].

فقد حان وقت زوال ملك بني أمية، وساق الله لذلك الأسباب؛ ولعلَّ أبرزها الانهزام الكبير لجيوشهم في معركة الزاب، فقد تحركت جيوش الثورة العباسية التي كان يقودها داود بن علي بن عبد الله بن العباس لملاقاة جيوش الدولة الأموية التي كان يقودها الخليفة الأموي مروان بن محمد الذي تخندق بين دجلة والزاب الكبير، وكانت القوات الأموية والعباسية بنفس العدد تقريباً على أنَّ الأمويين لم يكونوا بنفس الانسجام والقوة المعنوية التي تميَّز بها جند الدعوة العباسية، وقد عملت العصبية القبلية عملها في جيش مروان الذي كان يتكون في غالبيته من القبائل القيسية[1].

وكلمة الحقِّ والإنصاف تقول: إنَّه لو لم تخرج الرايات السود من خراسان حاملةً معها عرش الخلافة العباسية، لتمكن مروان من إعادة الأمور إلى نصابها، لتشرق الشمس الأمويَّة من جديد، كما أشرقت من قبل على يديِّ جده مروان ابن الحكم، إلا أنَّ مشيئة الله سبحانه وتعالى في اختبار الأمم أنهت نهار الأمويين برايتهم البيضاء، ليبدأ الليل العباسيِّ برايته السوداء.

وهكذا انتهت اثنتان وتسعون سنةً من الفتوحات المذهلة، والأسس الرائعة في ميادين إدارة الدول واقتصادها، واللبنة الأولى للعلوم والترجمة وأصول الشريعة، وروائع الأشعار البليغة، وأخيراً أمجاد العرب الذين آمنوا بأنّ الإسلام أصلُ مجدِ وعِزةِ عروبتهم.

١- الثورة العباسية ص (١٥٣)، تاريخ خليفة ص (٢٩٧).

لقد كانت حدود الأمويين مفخرةً للعرب؛ فالصين شرقاً والمحيط الأطلسي غرباً، وصحراء إفريقية جنوباً، وفرنسا في الشمال الغربي والإمبراطورية البيزنطية في الشمال الشرقي، فهي دولةٌ واسعة يقودها رجلٌ واحد لا لأنَّه يملك كل أسباب الحكم، بل لأنَّ الأمَّة بأجمعها ولاةً وقادةً وأفراداً قد آمنوا بحكمة خليفتهم، وبايعوه على ما فيه صلاح أمرهم وأمن حياتهم، هذه هي حضارة الإسلام التي ما زالت قصورها ومتاحفها وجهةً لعلماء التاريخ والآثار والسيَّاح أيضاً من مختلف أنحاء العالم إلى يومنا هذا.

ولا ننسى الأعمال الإدارية اللامعة لعبد الملك بن مروان؛ التي لو جمعت بكتبٍ في ذلك الزمان لدرِّست إلى يومنا هذا؛ فقد عرَّب دواوينَ دولته ففرض بذلك لغة دينه وقرآنه الذي نزل بلغة قومه، وعرَّب الأموال فحرَّر من بعده من تبعيِّةٍ مذلةٍ للروم، فقد علم ببُعد نظره أنَّ علاقة دولته بدولة الروم علاقةُ حربٍ، ولا بدَّ أن تنتهي على يد المسلمين بالنصر- الذي أنجزه السلطان العثماني محمد الثاني- فليس المناسب أن تبقى الدولة المسلمة مرتبطةً بعملة عدوها.

ولله درُّ المسلمين إن نسوا سيرة الخليفة الراشدي عمر بن عبد العزيز؛ الذي رسم أبواب الحضارة والرقيِّ، وزيَّن العالم بالرفعة والعزَّة، من خلال تقيُّده بأركان الإسلام وهدي المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام، فكان عهده يوم صفاءٍ في نهار الأمويين؛ فاختفى الفقر والتسول عندما أصرَّ هذا العربي المؤمن على تطبيق الزكاة والإشراف عليها، وارتقت خصالُ وتصرفاتُ المسلمين بفضل اهتمامه بالشيوخ والمفكرين الذين انكبوا على علمهم ليعلموا المسلمين شرائع دينهم، بل دخل الناس في دين الله أفواجاً.

لن ننسى التاريخ الأموي أبداً، ولن نسمح أن يُلوَّث أو يُحرف؛ فهو تاريخ العرب الذين آمنوا بالإسلام، فانتصروا بالإسلام وانتصر الإسلام بهم.